جُرْحُ الزيتون

عنوان الكتاب: جُرْحُ الزيتون

الموضوع: رواية

التأليف: مروان بركات

تدقيق لغوي: عمرو سالم سواح

الإخراج الفنيّ: عمرو سالم سواح

تصميم الغلاف: مروة صلاح

رقم الإيداع: ١٠٦٤١ /٢٠١٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٤٣-٦٣-٥

الناشر: دار المثقفون العرب للنشر والتوزيع

Facebook Page: المثقفون العرب للنشر والتوزيع

Email:elmosakafonalarab@gmail.com

Tel: 00201013029749

شيرين القاضي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار المثقفون العرب

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال إلا بإذن خطي مسبق من الكاتب.

رواية

جُرْحُ الزيتون

مروان بركات

يرحل الشهيد مبتسمًا . . . فيُدفن الموت بعيدًا عنه ذليلًا . . .

في أعين الشهداء رسائل العزة والشموخ والكرامة . . .

وعلى جبين القتلة أوسمة العار والخذلان . . .

مهما كثرت جحافل أهل الظلام . . .

يبقى النصر في النهاية حليف أبناء الشمس .

سأله:

- ما دينك؟

ردَّ عليه:

- الدين هو أن تعرف الله وتحترم أخاك الإنسان، لا أن تحاول أن تكون إلاهًا لتستعبد الناس.

سأله أيضًا:

- هل تقيم الصلاة في المسجد؟

قال له:

- هل من إمامٍ غير منافق؟

قال:

- وماذا عن الصوم؟

قال له:

- وماذا عن نداءات البطون الجائعة في بلاد أهل الصلاة والصوم والزكاة والحج؟! وماذا عن إراقة دماء الأبرياء في الأزقة، وعلى الأرصفة أمام المساجد؟! وماذا عن السرقات والاستيلاء على ممتلكات الإخوة في الدين؟!

صمت صاحب الأسئلة لبرهة وهو منكّس الرأس، ثم رفع رأسه وقال:

- ما هو مذهبك؟

ضحك ضحكة طويلة جدًّا، ثم تنهد عميقًا وقال له:

- ذهبَت بِكم مذاهبكم إلى طُرقٍ لا يذهبَ يذهبُ فيها عاقل يعرف ربه عن علمٍ. إنسانيُّ المذهب أنا.

استغرب صاحب الأسئلة، حكَّ جبينه من تحت عمامته، وقال:

- من أيِّ قومٍ أنت؟

قال له:

- أنا من أمةٍ وُلِدَ من رحمها الذي حطّم الأصنام قبل أن تنسج العمائم التي تُنسِج النفاق على نول المذاهب.

أنا من أمةٍ لن تقول: (الجنة تحت ظلال السيوف). ولا تفسر سورة "الأنفال" على أنها تُجيز هدر دم الأطفال، ودفن البشر في الصحاري وهم أحياء.

أنا من أمةٍ تكره شديد الكُره حفر الخنادق حول المدن، ووضع أكياس الرمل على الشرفات استعدادًا للقتال، ورائحة البارود.... أنا من أمةٍ تُحَرّم النهب والقتل والسبي باسم الدين والمذهب.

نعم... أنا من أمةٍ لا تعرف اعتقال الأوطان، والجلوس على الكراسي التي ارتقت بأصحابها الذين أسرفوا في قتل الأبرياء...

أنا من أمةٍ تلعن من يُحَرّف الآية الكريمة ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[١] من قِبَلِ أهل العمائم على المنابر؛ وهم يشيرون بذلك إلى المستبد والظالم.

نعم... كُرديٌّ أنا. واسمي شيركو.

عندما قال الجملة الأخيرة، هزَّ صاحب العمامة رأسه مبينًا عدم رضاه من حديثهِ، فسقطت العمامة من على رأسهِ أرضًا.

---

[١] النساء: ٥٩.

نظر إليه شيركو وقال له مؤنّبًا:

- حتى قماش العمامة لا يرضى أن يكون على رؤوسٍ تنسج الفتنة والتحريض للقتل على الهوية الدينية والمذهبية والعرقية؛ اتقوا ربكم، وكفاكم الإفك باسم الدين وغير ذلك!

احْمَرّ وجه صاحب العمامة، وبدا عليه الارتباك، ثم نظر إلى عمامته التي سقطت على الأرض، وصارت بين قدميه، ثم قال لشيركو:

- لا أحد يعادي الدين الإسلامي أكثر من العلمانيين وأنت واحد منهم.

ابتسم شيركو ابتسامة خفيفة، وقال له:

- أعتقد أن وقت صلاة الظهر قد اقترب. وأنت إمام جامع؛ لذلك من الأفضل أن تقوم لتحضر نفسك لخطبة يوم الجمعة. أليس كذلك؟ يا...!

نظر صاحب العمامة إلى ساعته ورد عليه بانفعال قائلا:

- الذهاب إلى المسجد أفضل من أن أسمعَ كلام فاجر علماني لا يعرف ربه.

مدَّ يده إلى العمامة، ووضعها على رأسه دون أن يمسحها من الغبار المعلق بها، وذهب ليصلي ببعض الناس من أهل البلدة إمامًا، ويلقي كعادته ما يحلو له عليهم بعيدًا عن روح التسامح والمحبة والألفة.

بعد أن ذهب صاحب العمامة إلى المسجد، قام شيركو وذهب إلى بيت عمه الكائن في الحي الشمالي الغربي من البلدة. ولدى وصوله إلى هناك رأى عمه واقفا في باحة الدار، نظر إليه مبتسما، حيّاه، وسأله:

- أين هي زوجة عمي شيرين؟

قال له العم خَلّو:

- ذهبت إلى حقل الزيتون لتجمع ما بقي من حبات الزيتون من تحت بعض الأشجار التي لم نتمكن البارحة من جمعها.

- ألا ترى أنكم تأخرتم في جمع الزيتون هذه السنة؟! نحن في أواخر شهر كانون الثاني يا عمي!

- يا ابن أخي! الزيتون الخلخالي كلما تأخر قطفه أعطى كمياتٍ أفضل من الزيت.

كانت شيرين في حقل الزيتون تبكي وتجمع ما تبقى من حبات الزيتون المشبعة برائحة التراب من تحت الأشجار التي زرعتها بيديها قبل عقدين من الزمن. وبين الفينة والأخرى كانت تُراقب الدّروب الهاربة إلى بلدة جنديرس المتكئة على أوجاعها من بعيد.

تبكي... وتبكي معها حقول الزيتون المفتوحة للوجع والحزن، كان بكاؤها يلخص تاريخ شعب، ويلد من رحمه عشق الحياة مع كل فجر. كانت تبكي على فراق أبنائها الذين هاجروا إلى أوروبا قبل سنوات مع عائلاتهم... تبكي لأن منطقة جبل الكُرد تتعرض للقصف من قبل الدولة التركية بغية احتلالها.

بعد أن انتهت شيرين من جمع حبات الزيتون المشبعة بالزيت ورائحة التراب، وقفت وهي تنظر إلى حقول الزيتون المتناسقة على امتداد سهل جنديرس، ورددت في نفسها: هنا مرتع الجمال وآيته... هنا تختصر كل قواميس الحياة... وهنا... وهنا... ثم هنا...

ثم جلست على التراب بهدوء، ووضعت حبات الزيتون في كيسٍ أبيض ذي خطوط حمراء، مصنوع على النول القديم. ثم وقفت إلى جانب جذع شجرة زيتون قديمة، وأطلقت نظراتها من بين رموشها المتعبة باتجاه المنحدرات المائلة بكل هدوء نحو الجنوب، وقالت في صمتها: هنا تتناثر بسمات الملائكة في كل الفصول، وتلتقي فراشات الأزلية في أحضان الشوق والانتشاء في لقاء أبدي.

هنا... اللوحة الأولى التي رسمها الربُّ دون جدال...

هنا... نكح أول فأس كردي بكارة التراب، فولد الزعرور والسنديان والزيتون والتين والرمان.

من هنا حملت الحمامة غصن الزيتون إلى الجودي الأعظم إشارة إلى صاحب السفينة المُخَلّصةِ بعد هدوء الطوفان.

هنا... تمتزج بلاغة العشق الأعظم للربِّ مع الغزل الأزلي للكردي الذي ولد من رحم الجبال وصلابة الصخر.

نعم... هنا ولدتُ وأعيش، وهنا سأدفن بعد أن ينال مني الزمن في لحظة آتية لا ريب فيها.

لم تكن شيرين تعرف البحث عن ذاتها في ضياع الأيام التي سُرقت منها بيد الزمن دون انتباه. فقد كرّست كل عمرها لخدمة الآخرين من حولها من أبناء وأحفاد ومعارف، وتردد دائما قولها المأثور: "أنا هنا لمساعدة من هناك". وعندما كان يسألها أحدهم عن سر هذا القول؟ تقول: ربما تكون المسافة بين هنا وهناك قصيرة، لكنها قد تكون زاخرة بالعبر والأحداث التي ربما لن تخطر على البال. وقد تكون في تلك المسافة القصيرة نداءات صامتة تريد البوح حين ترى الضجيج.

وقد يكون في ذلك البوح أكثر من أسئلة تحتاج إلى أجوبة. لكن تبقى هناك أشياء غامضة، ليس بوسع جميع الناس أن يجدوا إجابة عن الأسئلة التي طالها الانتظار والانتظار ثم الانتظار.

رغم أن الزمن قد طوى من عمر شيرين سبعين حولًا، إلا أنها ما زالت تتمتع بذاكرة قوية وكانت تتذكر أقوال جدّها الذي توفي قبل أربعين عامًا. ومنها قوله الذي كان يقوله لأبنائه وأحفاده: خير خيمة هي خلوها من خفايا الخواتم الخاوية، وخير الخواتم هي الخطوات الخالية من خطأ الخيارات. الخشية من الذات في سبيل العام هو أصل الضياع في صحاري الحياة.

بعد أن رددت شيرين قول جدّها بصمت، مدَّت يدها على الكيس المليء بحبات الزيتون، فوضعته على ظهرها، واتجهت بخطواتها الثقيلة إلى بلدة جنديرس التي تتربع وسط سهلٍ واسعٍ مزروع بشجر الزيتون.

في منتصف الطريق كانت شجرة بطمٍ قد احمرت أوراقها مثل خدّي صبية خجولة في ليلة زفافها. عندما وصلت شيرين إلى جانب تلك الشجرة، ابتسمت وبللت دمعتان رموشها. فوزعت نظراتها على أغصانها وأوراقها للحظات، وهي تتذكر اللقاء الأول الذي جمعتها مع الشاب حَمو بجانب تلك الشجرة؛ عندما كانت في الخامسة عشر من عمرها.

أنزلت أم فرهاد كيس حبات الزيتون من على ظهرها، ووضعته على الصخرة الموجودة بجانب شجرة البطم. ثم جلست بكل هدوء، وأسندت ظهرها إلى جذع الشجرة، ورجعت بذاكرتها إلى تلك اللحظات التي غازلها حَمو قبل خمسة وخمسين عامًا. لم تخنها ذاكرتها أبدا، فتذكرت تماما عندما قال لها حَمو يومها: في صدري مهجة الأيام حاكمة، وفي مملكته

تزدحم عناوين الحياة، وها أنا فوق صخرة العمر أنقش تراتيل لحظةٍ أنارت في معبد الروح سراجًا ميديًّا.... وخلف ضوئه تعانقت موناليزا الكردستانية طيف خضر إلياس السكير، وأصداء أناشيد الحب الأزلية... أعشقك يا شيرين... نعم أعشقك.

بعد أن تذكرت شيرين كلمات حَمو الذي وافته المنية بعد ستة أشهر من ذلك اللقاء. بدأت تنظر إلى مكان جلوس حَمو في ذلك اللقاء وهي تقول في صمتها: لا، ولن أنسى تلك الصّور التي كان لونها من ربيع عمري، سأحتفظ بها في جيوب طقوس الأيام الباقية... الرحمة عليك يا حَمو.

كانت شيرين تتقن القراءة والكتابة، فقد تعلمت ذلك على يد والدها عندما كان يُعلم أولاد قريته والقرى المجاورة في إحدى قبب قريتهم قبل أن يسكنوا بلدة جنديرس. وتستمتع بقراءة الشعر والنصوص الأدبية الأخرى.

قبل أن تقوم من تحت شجرة البطم، وتعود أدراجها إلى البلدة، وضعت يدها اليسرى على كيس حبات الزيتون ورددت في صمتها مقطعًا من الرسالة الأولى التي كتبها لها حَمو بعد لقائه بها لأول مرة تحت تلك الشجرة: (في كل صباح سأغزل لجسدك الملائكي قميصًا من رموش الشمس، وقصيدة بأبجدية القبلات. أعشقك يا شيرين عشق الكردي للجبال وشجر الزيتون...). بعد أن روت روحها بتلك الكمات الرقيقة والدافئة، حملت شيرين كيس حبات الزيتون على ظهرها، وبدأت ترسم آثار خطواتها الثقيلة على الطريق الذي يمضي بها نحو البلدة.

قبل وصول شيرين إلى دار ابنتها في الجهة الغربية الشمالية من البلدة، سقطت قذيفة غادرة بين أشجار الزيتون، فتطايرت شظاياها في كل الاتجاهات. واتخذت إحداها ظهر شيرين هدفًا لها، أوقعتها أرضًا لتتناثر حبات الزيتون في كل مكان حولها. أما التي بقيت في الكيس أصبحت تبكي دمًا.

هرعت حفيداتها إليها لتحملنها إلى البيت، إلا أن جُرحها كان بسيطًا جدًّا. رفعت رأسها وقالت لهن: جرح بسيط، لا تخفن، أنا بخير، فقط خذوني من هنا.

بينما كانت شيرين برفقة حفيداتها المتزوجات في طريقها إلى البيت قالت لهن: ربوّا أولادكم على حب الأرض وأشجار الزيتون ما استطعتم... لا تغادروا جنتكم مهما ازداد ظلم الغادرين...

بينما كانت الطائرة تقصف الطرف الجنوبي من البلدة، وتجرح عددًا من المدنيين، كان صاحب العمامة في المسجد قد أنهى الخطبة وهو يدعو قائلًا:

- (اللهمَّ شتت شمل أعداء العرب والمسلمين واجعل ديارهم وأموالهم ونساءهم غنيمةً لنا... اللهمَّ انصر المسلمين على العلمانيين الملحدين أينما كانوا...). وكان من هم في المسجد يقول: (آمين يا رب العالمين).

عندما سمع شيركو دعاء صاحب العمامة من على المنبر، قال لعمهِ خَلّو:

- وا أسفاااه...!!! كم نحن جهلاء بعد يا عمي! يردد فجّار العصر على لسانهم دائما كلمات عن الحلال والحرام، وبأيديهم، وأيدي أهل الارتزاق والجهل ترتكب كل الموبقات، ويسألونك عن أوقات وركعات الصلاة...!!!

هؤلاء المرتزقة من أصحاب العمامات فطورهم من السرقات، ولباسهم مشبع ببخار دم الأبرياء، وفي جيوبهم رُزم الدولارات التي جمعوها من التجارة بالبشر، وهم يصلُّون بالناس أئمة، ويحللون ما يروق لهم...!!! لعنة الربِّ على أهل الفتنة أينما وجدوا، ومن أية ملةٍ كانوا.

والأكثر غرابةً يا عمي! هناك مشردون ومسلوبون ومتهمون بالإلحاد إفكًا، وهم قبل طلوع الفجر يراسلون بعضهم البعض بعبارة ((جمعة مباركة)). وكأن السبت والأحد أو الأربعاء سبب لهم كل تلك المعاناة والجراح...!!! أليس هذا من عجائب هذا الشرق البائس يا عمي...!!!

ردَّ خَلّو على ابن أخيه:

- الدين هو القوة الأكثر تأثيرًا في الإنسان يا شيركو! فما بالك إذا استُغل من قبل أهل النفاق في المجتمع الجاهل؟ حينها تكون الطامة الكبرى.

بينما كان شيركو يتحدث إلى عمه خَلّو، دخلت شيرين مع حفيداتها إلى بهو الدار، وكان على فستانها الكرمانجي ذي اللون الأخضر الغامق بقع من الدم الذي سال من جرحها. أدرك العم خَلو وشيركو بأن شظية من شظايا ذلك القصف قد أصابتها. فأسعفوها إلى أقرب نقطة طبية في مركز البلدة. بعد أن ضمد الدكتور جرحها قال لها:

- إنه جرح بسيط، عليك العافية يا خالة.

كانت نتيجة ذلك القصف الحاقد ثلاثة شهداء وخمسة جرحى كلهم من المدنيين من أهالي بلدة جنديرس.

لم تكن شيرين تحب أن تسمع دويَّ المدافع وأَزِيز الطائرات، ولا حتى جعجعة قادة الأحزاب. وكانت دائمًا تقول لزوجها خَلّو: قبل أن تلدني أمي كنت أعشق الله. وبعد أن ولدتني بقيت أعشقه وجبل الكُرد معًا، ولا يمكن لأي كائن أن يسلب مني هذا العشق الأبدي.

وكان خَلّو يرد عليها بابتسامة رقيقة بسؤال: وماذا عن عشقكِ لخَلّو يا شيرين؟!

فكانت تبتسم، وتقول له: ولك أيضًا فيه حصة يا زوجي الغالي.

أعدت شيرين الحياة رسالةً مفتوحةً، وليست تابوتًا كما يقوله البعض من الناس. وكانت تقول للشباب والشابات إذا جالسوها: لا تجعلوا الحياة قميصًا وسخًا من الطيش... لا تتركوا اليأس يدخل حياتكم مهما ضاقت بكم الأيام... لا تنظروا إلى الأوراق التي تلعب بها الرياح في نهاية فصل الخريف، بل تأمّلوا كيف ستمتلئ الأغصان بالبراعم من جديد.

عندما اقترح خَلّو على شيرين أن يذهب معها لتأدية فريضة الحج قبل عدة سنوات، قالت له:

- أنا أحجّ كل يوم يا خَلّو.

قال لها خَلّو وباستغراب:

- كيف تحجين كل يوم وبيننا والكعبة مسافة طويلة ومدنٌ وحدودٌ ومساحات من الصحراء كما يقولون؟! أمْ أنه لأحاديث شيركو تأثير فيك؟!

ردت عليه شيرين:

- هل سبق واختلفنا أنا وإياك في حياتنا الزوجية؟ ألم نُعلّم أولادنا أحسن تعليم؟ ألم نعتن بأشجار الزيتون أفضل اعتناء؟ هل سمعت يومًا

من أحدٍ أننا وأولادنا أسأنا لأحد من الجيران أو غير الجيران؟ الذين يخجلون على ذنوبهم وفواحشهم يذهبون إلى الحج لعل الله يغفر لهم. أما إذا كان لا بدَّ من رمي الجمرات، علينا أن نرميها على هؤلاء الشياطين الذين يهاجموننا. على هؤلاء الذين يشعلون نار الفتنة بين المجتمع... على هؤلاء الذين يبيحون إراقة الدماء على الهوية العرقية والدينية والمذهبية... أليس كذلك يا خَلّو؟

كعادته أُعجِب خَلّو بجواب زوجته شيرين وقال لها:

- صدقتِ يا شيرين! الأشرار من بني البشر هم الشياطين الفعليون. هكذا هم الأشرار يرمون بكل أفعالهم الشريرة على ذلك الملاك...!!!

عندما كان العم خَلّو شابا لم يكن هناك أحدٌ في بلدة جنديرس والقرى المجاورة لها يستطيع أن يعمل مثله في فلاحة حقول الزيتون والاعتناء بها. كان أهل القرية يسمونه لقبًا بـ (ابن الفجر)، لأنه كل يوم وقبل أن تعانق خيوط الشمس الذهبية قمم جبال بلبل وهاوار وليلون، يتجه إلى حقول الزيتون ليهب عشقه للأشجار والأرض بكل إخلاص.

في اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني، ومع ساعات الصباح الأولى خرج خَلّو إلى بهو داره الذي كان يتوسط حقلًا صغيرًا من أشجار الزيتون والخوخ وغيرها من أشجار الفاكهة ليتفحصها شجرةً شجرةً كعادته كل صباحٍ ومساء. نادته زوجته شيرين من داخل المنزل:

- شراب دبس العنب جاهزٌ يا خَلّو، هيا لنشربه معًا.

ردَّ عليها خَلّو:

- إنَّ احتساء شراب دبس العنب بالقرب من شجرة الليمون الصغيرة له مذاق ألذ يا شيرين!

هكذا هم الكُرد لا يتلذذون بالحياة إلا في الأماكن التي تنضح بالحياة... هكذا هم أهل جبل الكُرد لا يختارون الأماكن إلا حيث الشجر والخضار... هكذا هم أحفاد كاوا الحداد لا يتلذذون بالطعام والشراب إلا حيث يكون حفيف أوراق الشجر وزقزقة العصافير... نعم الكردي والطبيعة الخلابة توأمان منذ الخليقة الأولى.

كانت شيرين امرأة هادئة في حركاتها وحديثها، لكنها كانت صارمة مع من يخطئ في حقها، أو في حق أسرتها. وكانت دائمًا تقول لمن يجالسها: لا فرق بين من ينامون تحت الأرض في القبور، والأحياء على الأرض الذين لا يعملون لأهلهم ومجتمعهم بصدق. وكانت تقول أيضا: العيون التي تذرف الدموع دون مناسبة، هي عيونٌ جبانة. والجبناء يعيشون تحت أغطية مهترئة.

جلست شيرين إلى جانب خَلّو بالقرب من شجرة الليمون الصغيرة لاحتساء شراب دبس العنب. وهما يستمتعان بذلك الصباح العفريني الهادئ إلا من زقزقة العصافير.

بينما كانا يحتسيان الشراب؛ وإذا بصوت ينادي من خلف سياج الدار:

- يا عم خَلّو... يا عم خَلّو!

تنحنح خَلّو من على الكرسي الخشبي الذي صنعه بيده من خشب الجوز، وقال بصوت أجشّ:

- تفضل يا رَشو... تفضل.

دخل رَشو بهو الدار وبيده منشار قديم لتقليم الشجر. جلس إلى جانب خَلّو. وقامت شيرين لتُحَضِر له كأسًا من شراب دبس العنب.

عندما جلس رَشو تنهد عميقًا وقال:

- ماذا سنفعل يا عم خَلّو؟ يقال إنَّ سكان بعض القرى الحدودية من جبل الكُرد بدأوا بالنزوح من قراهم باتجاه القرى الأقل استهدافًا من قبل الطائرات التركية. ماذا نفعل؟

قبل أن يجبيه عمه، جاءت شيرين، وفي يدها كأس الشراب، ناولته لرَشو قائلة:

- تفضل إنه شراب من صنع عمك خَلّو.

نظر خَلّو إلى رَشو بنظرات ملؤها الصمود والتحدي وقال بلهجة عفرينية خالصة:

- وحدها إرادة الله تستطيع أن تقتلع الكردي من بين أحضان الجبال وأشجار الزيتون. هل تعلم أن هذا التراب لن يخون من اعتنى به. وليعلم كل العالم أننا لن نعلق القماش الأسود على أغصان أشجارنا ونغادرها. نحن نملأ الكؤوس من شراب دبس العنب، لا نملؤها دموعًا، ولو كانت بالإيجار. لا نعيش إلا هنا، وإن متنا سندفن هنا، ولا بديل عن هذا يا رَشو.

عندما كان العم خَلّو يتحدث، كانت شيرين تتفحص ملامح وجه رَشو، وتقرأ فيها أكثر من رسالة تشير إلى قلقه من الأيام القادمة. وبعد أن انتهى العم خَلّو من حديثه قالت شيرين:

- الدماء التي تجري في عروقنا هي من خيرات هذا التراب، ورائحتها من شذا أزهار الزيتون. لا تقلق يا رَشو هذه الجبال والوديان والسهول التي تكسوها أشجار الزيتون والسماق والبطم والزعتر البري، لا تقبل إلا بمن يعشقونها ويجيدون التعامل معها.

تنهد رَشو ثانية وقال:

- كل العالم ضدّنا...! وكأن الكُردَ ليسوا من خَلْق الله...! نحن شعبٌ مُسالم، ولا نريد الشرّ لأحد.

نظر خَلّو إلى عيون رَشو وقال له:

- في دَمِنا طعم أصفر من لون السنابل... ورائحة خضراء من روح طبيعة جبالنا... في دَمِنا الألوان كلها إلا الأسود. ألم تسمع كيف أنَّ جدّك كان يصطاد الضباع من دون سلاح؟ انظر إلى رقصات أغصان شجرة الزيتون، ألا تَرى فيها كل تفاصيل الحياة؟ حتى الموت هنا له طقوس غير الطقوس التي خارج حدود هذه الجنة يا رَشو!

بعد أن سمع رَشو كلام خَلّو، ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

- صدقتَ في كل كلمة قلتها يا عم خَلّو... صدقت.

نهض رَشو ليذهب إلى تقليم أشجار الزيتون، في الوقت الذي كانت الطائرات الحربية للدولة التركية تقصف بكل حقدها قرى ناحية راجو، بلبل، شران، معبطلي وشيه.

قبل أن يخرج رَشو من الدار قالت له شيرين:

- يا بني! نحن أبناء الشمس خُلقنا لنواجه الظلام... لذلك فإن هذه الأرض لا، ولن تكون مقبرة للحياة مهما قست عليها الظروف، وحاول المتعدون وأد أحلام أبنائها.

بعد أن خرج رَشو إلى تقليم أشجار الزيتون، جلس خَلّو وشيرين في نفس المكان.

وبينما كانا يتبادلان الحديث عما تتعرض لها منطقة جبل الكُرد من هجمات غادرة من قبل الطائرات التركية، ونوايا الدولة التركية وأطماعها في جبل الكُرد. صاح شيركو من خارج سياج الدار المكون من أغصان الزيتون:

- عمي خَلّو... عمي خَلّو...!

- تفضل يا ابن أخي... تفضل. زوجة عمك تجيد الحديث عن السياسة أيضًا.

دخل شيركو إلى الدار وهو يبتسم. وبعد أن سلم عليهما، جلس إلى جانب عمه وقال:

- زوجة عمي تجيد الكثير من الأعمال، وليس الحديث عن السياسة وحسب يا عمي! فهي تتقن تحضير شراب دبس العنب أيضًا.

ضحك الثلاثة، ونهضت شيرين لتُحضر له كأسًا من الشراب. وقبل أن تأتي بكأس فيها شراب دبس العنب، نادى صاحب العمامة من خارج السياج:

- خَلّو... خَلّو!

رد عليه خَلّو، وقال:

- تفضل يا شيخ... تفضل.

دخل صاحب العمامة، وبعد إلقاء السلام جلس مقابل شيركو، إلا أنَّ ملامح وجهه كانت تشير إلى عدم رضاه من توقيت مجيئه إلى زيارة خَلّو، وكان ذلك بسبب وجود شيركو هناك.

رأت شيرين من نافذة المطبخ أن صاحب العمامة أيضًا جالسا. فحضرت كأسين من الشراب، وأتت بهما وضيّفتهما، ثم جلست إلى جانب زوجها خَلّو. بعد أنْ ساد جوٌّ مِنَ الصمت دون أن يتكلم أحد منهم، مدَّ صاحب العمامة يدهُ إلى الكأس وقال:

- سبحان الله الذي سخر كل لذيذٍ ومفيدٍ للمسلمين.

ثم رشف الشراب وقال:

- سلمت يداكِ يا أمَّ فرهاد!

ثم تابع حديثه قائلا:

- الحمد لله الذي أنعم علينا بدين الإسلام، وأعوذ بالله من شر الشيطان والملحدين والنصارى واليهود والعلمانيين الذين يتربصون بالمسلمين ليل نهار.

عَرَفَ شيركو بأنَّ صاحب العمامة يوجه كلامه له. لكنه بقي صامتًا، ولمْ يرد أنْ يدخل معهُ في سجالٍ عقيم أولًا، ولأنه ضيف في بيت عمهِ ثانيًا.

لكن صاحبُ العمامة كانَ يريد جرَّ شيركو إلى الحديث، فتابع حديثه وقال:

- كان جدَّي رحمهُ الله يقول لنا: كان سلاطين العثمانيين يُصلّون على البحرِ دون أنْ يغرقوا. لأنهم كانوا أولياء الله على الأرض. العثمانيون هم من حافظوا على الدين مدة خمسة قرونٍ من الزمن يا خَلّو! رحم الله سلاطين الدولة العثمانية.

عندما قال صاحب العمامة ذلك، التفت شيركو إلى زوجة عمهِ شيرين، وقال لها:

- يا أُم فرهاد...! سأقص لك ما رأيته الليلة الماضية في الحلم: رأيته، كانَ وسيمًا ورشيقًا، ويشعُ من وجههِ نور لم أرهُ مِنْ قبل. اقترب مني بكل هدوء، وقال لي: أشكو إليك مِنَ الظالمين والمفسدين في الأرض، ومن أهل النفاق والجهل من كل الأممِ والملِ...

قلتُ له:

- مَنْ أنـ.....

قاطعني وقال:

- لا تسألني، فأنا أعرف سؤالكَ مسبقًا. أنا من تسمونه أنتم البشر بـ (الشيطان).

نعم يا أم فرهاد! وفجأةً استيقظتُ على صوت قذيفة في الحي الشمالي من البلدة. وفي الصباح قالوا: إنَّ تلك القذيفة أودَت بحياة طفلين وأمهما وهم نائمون في بيتهم. حينها قُلتُ: كم أنت مظلومٌ من قِبَلِ بعض الأشرار من البشر، البشر أيها الملاك.

ابتسمت شيرين ونظرت إلى وجه صاحب العمامة وقد تغيرت ملامحه، وكأنه تناول للتوِّ صفعة من يد فلاحٍ كرديٍّ يتقن الصفعات على وجوه اللصوص الذين يقطعون شجر الزيتون من مزرعتهِ. وقالت:

- يا بني! ما علاقة الشيطان في قتل أطفالنا وأطفال العالم بالطائرات وغيرها من الأسلحة؟ ما علاقة الشيطان في إراقة الدماء دون توقف في هذا الشرق البائس وفي أية بقعة من العالم؟ هناك شياطين من البشر يخشاهم ألف ألف شيطان وشيطان. يكاد الله يبكي من أفعالهم الشنيعة.

تمتم صاحب العمامةِ دون أن يُفهم ما يقوله:

- أستغفر الله من كل ذنبٍ عظيم. هل الله يبكي يا أم فرهاد؟ ما هذا التعبير الذي فيه رائحة الإلحاد؟

أراد شيركو أن يرد على أسئلة واستغراب صاحب العمامة، إلا أنَّ شيرين لم تترك له المجال وقالت:

- هل يبكي الله؟ الجواب في دموع الأطفال اليتامى والأمهات الثكالى.... كيف لا وأنف السماء امتلأ ببخار الدم؟! كيف لا وقد أصبح القتل في هذا الشرق البائس عقيدة؟! وفريقٌ ممن يسمون أنفسهم بالأئمة، وبين لحاهم كل الرجس، وفنون النفاق، وهم يُفتون ليل نهار بقتال الكُردِ دون أي وجه حق؟! حتى بات الكُردي يقول: يا ألله...عبدك الكُردي يسألك: هل صمَّت آذان السماء أيضا؟

قبل أن يدافع صاحب العمامة عن رأيه، ويؤكد على أنَّ الله لا يبكي. وإذا بأزيز طائرة حربية تفسد أجواء البلدة، ولا تمضي إلا لحظات حتى قصفت جامع صلاح الدين الذي يقع في وسط البلدة. وخلفت وراءها عددًا من الجرحى والشهداء، وتدميرًا جزئيًّا في أجزاءٍ من الجامع.

وبعد أن غادرت كان صاحب العمامة يرتجف رعبًا، فقال له شيركو:

- هل رأيت ما يفعل الشيطان ببيوت الله يا إمام بيت الله؟ أم أنَّ الطائرة قصفت بأمرٍ من إبليس، الذي بات مستغربًا من أفعال هؤلاء البشر؟!

قام صاحب العمامة دون أن يستأذن، وغادر بيت خَلّو.

كانت الطائرات تفرغ بحمولتها من الحقد والبربرية على قرى جبل الكُرد، ودويّ الانفجارات يسمع على امتداد المنطقة، وأعمدة الدخان تتصاعد نحو السماء حاملةً معها رجس الأفعال المنافية لكل قيم الإنسانية، قالت أم فرهاد لشيركو:

- كان جوابك لصاحب العمامةِ في محله تمامًا.

قال شيركو:

- عندما يتعرى الماضي بين كفوف الحاضر بكل تفاصيله، لن تبقى لرحلة الآثام والمعاناة والظلام دروب إلى المستقبل. نعم... حينها لا زمنَ لإطفاء مصابيح الحرية، مهما اشتدت رياح الحقد الأعمى. أما من يعش متوهمًا بأنه دائمًا هناك فَخٌ ينتظره في كل خطوة يخطوها، وهو في طريقه إلى الحق، سيغلب في النهاية على أمره.

وضعت أم فرهاد يدها على كتف شيركو وقالت له:

- يا بني! لا تزال في ريعان شبابك. وعمرك لا يتجاوز خمسة وعشرين عامًا. عركتني الحياة، والآن عمري يتجاوز السبعين عامًا.

يا بنيّ! هناك من يقتل الإرادة، ثم يبكي عليها... وهناك من يبكي لأنه لم يقتل الإرادة، وبين هذا وذاك هناك من يمضي إلى الهدف ليقتل كل سلاسل الضعف، ويخترق جميع حلقات العبودية.

قال شيركو:

- لا أحد رمى بالكردي إلى قمم ومنحدرات الجبال ليقول له: أنت ابن القساوة. بل خُلق الكردي توأمًا للجبال، لينظر من على قممها إلى عار المنخفضات. هكذا هو الكُرديُّ دائمًا، يريد أن يكون قريبًا من الشمس حتى يكون أول من يرى كيف يطارد النور الظلام.

قال خَلّو:

- تموت آراء بعض الناس قبل أن تُسمع، ويتردد صدى تحطيمها على الذهنية المحطمة إنسانيًّا. في كل زمانٍ ومكان هناك مِنَ الناس من يفكر كيف سيهدي قارورة عطر إلى أطفال جيرانه، ويخفض صوته عند الحديث في الليل حتى لا يزعج الأطفال وهم نيام. وهناك أشباه بشر ولدوا من رحم الشر، وكل همهم هو أنْ يحولوا السكينة إلى صرخة من الهدم والقتل؛ ليستمتعوا برؤية دم الإنسان يختلط ببقايا الإسمنت.

ثم قام خَلّو ليتفحص بعض أشجار الزيتون في مزرعة الدار.

قالت شيرين:

- يا بني! يقال: السيف المحطم يجلب الهزيمة للفارس، ومن العار أنْ تلقي باللوم في هزيمتك على الفرس أو ساحة القتال. أما العار الأعظم هو أنْ يُدفن المهزوم إلى جانب العظماء من القوم في تابوت من ذهب، والعامة تندبه دون أنْ يدركوا حقيقة المدفون.

أعرف أنك لا تستطيع حمل السلاح. وأعرف أيضًا أنكَ تعشق أشجار الزيتون كعشقك للعلم والمعرفة. يا بنيَّ! أريد أن أموت، ولا أرى جُرح الأرض والزيتون.

كان شيركو يستمع إلى أم فرهاد بكل أحاسيسه وهو يفسر كل كلمة في ذهنه وبكل دقة، وفي نفس الوقت كان مستغربًا ويتساءل في نفسه: من أين لزوجة عمي كل هذه الثقافة وحكمة الحديث؟! فسألها:

- وماذا عن جراح الإنسانية يا أم فرهاد؟

قبل أن تجيب أم فرهاد شيركو على سؤاله، جاء خَلّو من بين المزرعة حاملا في يده غصن زيتون. فوضعه على الطاولة الخشبية، وجلس على الكرسي إلى جانب شيرين وقال:

- كان يجب أن أقلّم هذ الغصن منذ الربيع الماضي، لكنني لم أفعل ذلك لأن طائر أبي الحنِّ قد بنى عشّه عليه. فأبقيته؛ ليفرّخ عليه.

بعد أن أكمل خَلّو حديثه، التفتت أم فرهاد إلى شيركو وقالت له:

- سألتني عن جراح الإنسانية أليس كذلك؟ يا بني! تخريب عُش أبي الحنِّ طعنٌ للإنسانية، ولو كان الغصن الذي بنى عليه عشه معيقًا لسيرنا من تحته. فكيف إذا تمَّ قتل الفراخ؟ تلويث الرياح بالغبار هو جرح للإنسانية، وماذا نقول عن أصحاب المفاعل النووية. حيث يصنع أصحابها أسلحةً ليس ليقتلوا بها البشر وحسب، بل ليقتلوا كل الكائنات والموجودات؟. وتسأل عن جرح الإنسانية؟!!

نعم يا بنيَّ! تلك الأيادي التي تنسج قلنسوة الإعدام... وتلك الأصابع التي لا تَتْعَبُ من الشدِّ على الزناد... وتلك الأيادي التي تعلق النياشين الدموية على صدورٍ خالية من الرحمة والرأفة والإنسانية... وتلك القصور التي تصدر الأوامر لتدمير المدن حتى يتلذذ أصحابها بهدم الحضارة...

وتلك الأيادي التي ترفع رايات الجهل والأمية في بلدانها في سبيل أن تتحكم برقاب الناس دون أي وجه حق كلها تجرح الإنسانية.

نعم يا بنيّ! هناك سجون كثيرة تضم أطفالًا ونساءً وعجائز وكهولا، لم يرتكبوا ذنبًا، أوصدت في وجوههم أبواب العدالة، وحوكموا على جرائم وتهم ألصقت بهم زورا وبهتانا...

وتلك الأناشيد الحاقدة التي تحرض على الفتنة من قبل أصحاب العمامات... وحتى المقولات التافهة: سنغرق اليهود في البحر... سنبيد الكُرد... نحن خير أمةٍ أُخرجت للناس... الغرب كافر... العرب همج...!!!. فكل هذا غيض من فيض لجرح الإنسانية.

كم هو إنسانيٌّ وحضاري أن نرى مدنًا تعيش فيها كل الأقوام والأديان والمذاهب معًا في سلمٍ وأمان. المدن التي تخْلُو من روح التسامح والعيش المشترك والألفة، ما هي إلا كتل من الإسمنت والحديد والبلّور.

رغم أن شيركو كان لديه مخزون ثقافي لا بأس به، إلا أنّهُ لم يَكن يَعرف أن زوجة عمهِ بإمكانها أن تناقش كبار المثقفين في محيطها. ولَمْ يكن يَعرف أيضًا أنَّها تتقن التعامل مع أصحاب الأفكار المتناقضة وبأسلوب سلسٍ دون أن تزعج أو تجرح أحدًا.

نهضت أم فرهاد، وذهبت إلى مطبخها القرويّ البسيط لتحضر إبريقًا من الزهور الجبلي الذي جمعه خَلّو بيديه من جبل قازقلي، وتخوم حقول الزيتون. حينها كان شيركو يفكر بما قالته أم فرهاد، وفي نفس الوقت كان يحضر لها سؤالًا.

قبل أن تأتي أم فرهاد بالزهور نادت رنكين من على باب الدار:

- خالة أم فرهاد... خالة أم فرهاد!

ردّ عليها خَلّو:

- تفضلي يا رنكين... تفضلي. أم فرهاد في المطبخ تحضر لنا الزهور.

دخلت رنكين، وبعد أن سلمت على خَلّو وشيركو، جلست على الكرسي بجانب خَلّو.

سأل خَلّو رنكين:

- لستِ على ما يرام، هل هناك أمر أزعجك؟

قبل أن تجيب رنكين على سؤال خَلّو، جاءت أم فرهاد، فوضعت الزهور على الطاولة، وسلمت على رنكين، ثم جلست إلى جانبها. بينما كانت أم فرهاد تصب الزهور في الكؤوس، كان شيركو يلقي بعض نظراته على رنكين، ويقول لنفسه: يا ألله ما هذا الجمال الأخاذ؟! ما هذا القمر عند هذا الصباح؟

فوقع قلب شيركو في مصيدة جمال رنكين من أول نظرة.

يا ترى هل سترحم الحرب القلوب التي بدأت تحب لأول مرة؟

لم ينس شيركو سؤاله الذي حضّره لأم فرهاد، فبادر بالسؤال وقال:

- نعم يا زوجة عمي أم فرهاد، أريد أن أتابع معك الحديث وأسألكِ: عن جرح الأرض والزيتون والإنسانية أيضًا، وهل للبشرية أنْ تكفَّ عن تجريحها للإنسانية يوما ما؟

-يا بني! أكبر جرح للأرض حين يسكنها البشر ويتركونها قفرةً جرداء، ويصبح جرحها أعمق حين تشجر بأيادٍ تعشق الحياة، وتأتي أخرى لتقتلع الجذور من رحمها، وتحرق الجذوع.

ويتعمق جرحها أكثر فأكثر حين تُراق الدماء عليها، وتتوسع مساحة المقابر. أما الجرح الأعظم للأرض هو عندما يُهَجّر أصحابها قسرًا. وهذه الجراح مشتركة بين الأرض وأشجار الزيتون في كل تلك الحالات.

ولا تنسَ أيضًا أنَّ زرع الألغام لصيد العابرين والهاربين من جحيم الحرب إلى حيث الأمان هو جريمة بحق الأرض والزيتون والإنسانية. أليس كذلك يا شيركو؟

قبل أن يبادر شيركو بالحديث قالت رنكين:

- يا أم فرهاد! كان أبي رحمه الله يقول لنا: شجرة الزيتون ليست مباركة وحسب، بل إنها نفحة من نفحات الربّ. ومن الكفر ألّا نعتني بها، أو نهملها عند جني المحصول، فكيف إذا قطعناها، أو خلعناها من جذورها، أو احترقت بقذيفة؟

هزَّ خَلّو برأسه، ووضع كأس الزهور من يده على الطاولة، وقال:

- صدق أبوكِ يا رنكين! أقْسَمَ الله بشجرة الزيتون؛ فهي مباركة. جدّي مامو رحمه الله كان يقول: مَن يؤذِ شجرة الزيتون عن قصد تنزل عليه لعنات الله صباح مساء.

ثم ابتسم، وقال لرنكين:

- لون عينيك نفس لون حبة الزيتون، وهي في شهر آب.

عنما كانت رنكين تتحدث، كان قلب شيركو يرتعش لأول مرةٍ من طهارة الحب. وكان يهرب نحو عينيها الخضراوين دون انتباه منها. كان يريد أنْ يزفَّ إليها بعض الابتسامات، لكنه كان يخشى ردّة فعلِها.

قالت رنكين لأم فرهاد:

- أمي تُريد أنْ تزوريها في المساء.

ثم قامت وهي تستأذن بالذهاب، أهداها شيركو ابتسامةً خفيفة. وهي أيضًا بادلته بابتسامةٍ خجولة.

لاحظت أمُّ فرهاد كيف أنَّ ملامح شيركو تغيرت، وعرفت أنَّ قلبه تم اصطياده بشبكة تلك الابتسامة الملائكية من رنكين. وقالت بصوت خفيف لا يكاد يسمع: اللعنة على هذه الحرب الكريهة... اللعنة.

سمع شيركو كلمة (الحرب) من أم فرهاد، لكنه لم يسمع بقية الجملة. فسألها:

- وكأني سمعتك تقولين الحرب يا زوجة عمي؟!

صمتت أم فرهاد لبضعة دقائق ثم قالت:

- في هذه الأيام كل منطقة جبل الكُردِ خط نار. وكما يبدو لن تَسْلمَ أي قرية أو بلدة أو مزرعة في جبل الكُرد من هذه الحرب التي فرضت علينا. يا بني! الحرب قذرة.

نعم يا بني! ما أصعب أن يبكي المرء زمنًا يموت خلف جدار الصمت... والأصعب منه أنْ نبكي وطنًا ولا يرى أحد دموعنا.

لا ندري كم من طفلٍ استشهد في هذه اللحظات التي نتحدث فيها، وكم من الأمهات تذرفن الدموع خلف الجدران؟

وكم من قميصٍ أبيض تغيَّر لونهُ إلى الأحمر؟ وكم من كهلٍ عفرينيٍّ يبكي شجرة الزيتون؟

وكم من النساء يتمنين الموت بعد فقدانهنَّ لفلذات أكبادهنَّ؟ هل هناك أقذر من الحرب؟

نعم الحرب قذرة وقذرة ثم قذرة... والأقذر منها هي عناكبها التي تنسج الموت في زوايا الحقد عبر هذا العالم الذي أصابته جميع تشوهات الفكر.

بعد أن أنهت أم فرهاد كلامها، قال لها خَلّو:

- يا أم فرهاد! أعتقد أنَّه حان وقت الغداء. أما الحديث عن هذه الحرب التي تشنها الدولة التركية على منطقة عفرين سيطول أكثر وأكثر. وقادم الأيام لا يبشر بخير.

قالت أم فرهاد وهي واقفة:

- يبدو كذلك يا أبا فرهاد... يبدو كذلك! هذه الحرب القذرة تستهدف الكرد ككل وليس عفرين فحسب. هذه الحرب الظالمة تستهدف الحضارة والإنسانية أيضًا.

ثم ذهبت لتحضر غداءً بسيطًا من حواضر البيت.

وبينما كانت أم فرهاد في المطبخ، كان خَلّو يتحدث إلى شيركو وهو يقول:

- قالوا رمينا نيرون على مزبلة التاريخ، لكن كم مساحة نحتاجها من تلك المزبلة لنرمي عليها أحفاد نيرون في زمن العولمة؟

قالوا ما عاد باستطاعة الحجّاج أن يعود، لقد دفناه وزمنه. لكن بقيت كل أزمنة الشرق تعاني حجّاجًا والقهر.

قالوا زالت قلاع سلاطين الظلم على يد الأحرار، ولم يبق لنظام الحرملك أثرٌ بعد اليوم. لكن زادت نسبة الخصيان في مجالس سلطان العصر، وزادت نسبة الذين يصنعون في القصور كؤوس الخمر من الجماجمِ.

متى سيفك العالم أزرار بزته العسكرية، ويدفن وجه عاره، وتخلو السماء من سحائب الدخان المُلون، والأرض من قوافل الغبار الأرعن؟ الحرب قذرة وقذرة ثم قذرة يا بنيّ!

الأرض جريحة... السماء جريحة...

الزمن... الإنسان... الحيوان... النباتات... والأشجار... نعم البحار والأنهار... كلهم جرحى وجرحى ثم جرحى.

إنهم الطغاة، وعشقهم الدمار والحطام. قذرون... الطغاة وأمراء الحروب قذرون. الحرب قذرة وقذرة ثم قذرة... يا بنيّ!

قال شيركو:

- نعم يا عمي! هذه الطبيعة لوحة بارعة الجمال، لكن هناك من يعمل ليل نهار ليُسقط عنها نضارة الألوان. لأنه لا يروق له إلا الأسود من الألوان. أعلامهم سوداء... قلوبهم سوداء... أحاديثهم سوداء... حتى الحليب الذي رضعوه من ثدي أمهاتهم كان أسود.

أمراء الحروب، جهنميو الأشكال والأفعال... إنهم ساقطون أمام الإنسانية وأحذية الأطفال... هؤلاء الذين يقتلون الزهور في رحم النساء، هل يمكن أن يقال عنهم إنهم بشر، أو حتى أشباه بشر؟!

ثم أدرك شيركو بأنه يجب أن يقوم ويذهب لمساعدة زوجة عمه في تحضير الغداء. استأذن من عمه واتجه من فوره إلى المطبخ.

بينما كانت أم فرهاد تُحضر الغداء في المطبخ، كانت تقول في نفسها: كما يبدو شيركو أَحب رنكين. وابتسامة رنكين أيضًا كانت ابتسامة حُب. نعم... نعم، كم يليقان ببعضهما. لكن هذه الحرب اللعينة! لا نعرف ماذا ستفعل بنا في قادم الساعات والأيام؟ اللعنة على الحروب.

عندما دخل شيركو المطبخ، كانت أم فرهاد منتهيةً من تحضير الغداء. فحمل شيركو الصينية التي كانت عليها صحون من دبس العنب والزيتون الأخضر وزيت الزيتون وغيرها من حواضر المطبخ العفريني، وذهب بها ووضعها على الطاولة بالقرب من شجرة الليمون الصغيرة. وأتت أم فرهاد بإبريق الشاي وجلست إلى جانب خَلّو.

بينما كان شيركو وخَلّو يتناولان الغداء شرعت أم فرهاد بالحديث قائلة لهما:

- هذه الفتاة رنكين جميلة ومتعلمة، لكنها لم تتمكن من إكمال دراستها الجامعية نتيجة الظروف التي تعيشها منطقة جبل الكُردِ من حصار وغيره من المشاكل. نعم يا خَلّو! رنكين مثقفة.

كانت أم فرهاد بشكل تسمع بشكل غير مباشر حديثها لشيركو.

نظر شيركو إلى أم فرهاد وقال لها:

- والله يا أم فرهاد! دائمًا أمي تقول لي: كفى يا شيركو! عليك أن تجد لك عروسًا لنفرح بك قبل أن يأخذ الله أمانته.

وأنا أقول لها: لم يحن الوقت بعد يا أمي! بدأت هذه الحرب، ولم يعد هناك مجال بالتفكير حتى بأبسط أنواع الفرح. فكيف يمكن لي أن أفكر بالزواج في هذه الظروف؟

إلا أنني - في الحقيقة - أجد أنَّ أمي على حق. ولكن لا ندري ماذا تخبئ لنا الأيام القليلة القادمة. الحرب يا أم فرهاد الحرب، إنها قذرة. ففي الليلة الماضية تم قصف أغلب القرى في جبل الكُردِ من قِبَل الطائرات التركية، ناهيك عن قصفها بمختلف الأسلحة الثقيلة من خلف الحدود. هذه

الحرب غير المتكافئة ستسبب لنا آثارا لا تحمد عقباها. الآن نحن نتغدى هنا، ولا نعرف هل سنبقى أحياء إلى أن يحين وقت العشاء أم لا؟

أخذت أم فرهاد نفسًا عميقًا ثم قالت:

- سواءٌ أكانت الحرب متكافئة، أم غير متكافئة، فهي لا تلد إلا الجريمة. وعندما تنتهي مخاض الحرب وتلد جريمتها ترتفع الأصوات في الشوارع عبر مكبرات الصوت، وفي البيوت والحانات وعبر التلفاز والمذياع وأيضا في المآذن تمجيدًا لأبي الجريمة...!!!

- نعم يا بني! في سعير الحرب لا تفيد البيانات الحماسية والتصريحات النارية... ولا السؤال عن الضمير والإنسانية. الحرب كارثة مدمرة حتى لو كانت باسم الثورات.

أراد شيركو أن يقول شيئًا، إلا أنَّ خَلّو بادر بالحديث وقال:

- ذات مرة قرأت لشاعر عربي، وأعتقد أنه مصري، يقول في إحدى قصائده:

(قلتُ لكم مرارًا
إن الطوابير التي تمرُّ...
في استعراض عيد الفطر والجلاء
فتهتف النساءُ في النوافذ انهارا... لا تصنع انتصارا
إن الرصاصة التي ندفع فيها ثمن الكسرة والدواء
لا تقتل الأعداء
لكنها تقتلنا... إذا رفعنا صوتنا جهارا
تقتلنا، وتقتل الصغارا).

- نعم يا بني! قبل أن تعلن هذه الحرب القذرة بأسبوع، قلت لأم فرهاد: هناك من يدفعنا لكي نخوض حربًا غير متكافئة وذلك لتحقيق مآربهم. عسى أن يكون بيننا عقلاء لنتفادى ما يخطط لنا في الخفاء. لكنها بدأت، ولم يَعد بالإمكان إيقافها، أو الخروج منها بأقل الخسائر.

كان شيركو مقتنعًا تمامًا بكل ما يقوله عمه خَلّو، لكنه أراد أن يتحدث عمه أكثر. لذلك طرح عليه سؤالاً ذا شقين:

- ماذا لو انتصرنا في هذه الحرب؟ ألم تكن هذه الحرب مفروضة علينا يا عمي؟!

أدرك خَلّو قصد شيركو من السؤال، لذلك قال له:

- فلتجبك أم فرهاد.

في البداية لم تكن أم فرهاد تريد أن تجيب على سؤال شيركو، لكن الأخير أصرّ عليها. فقالت أم فرهاد:

- يا بنيّ! الانتصار الأعظم هو أن تسقط بعض المفاهيم والأفكار الضارة في المجتمعات. وأن يكون هناك احترام للرأي الآخر الذي ينتقد بغية التصحيح. وأن تكون هناك مرجعية قادرة على اتخاذ القرارات المصيرية لقضايا الشعب. والانتصار الأكبر هو ألا تزج بقومك في الحروب إن كانت متكافئة أو غير متكافئة. ليس هناك انتصار في الحروب، ليست هناك سوى دماء مُراقة ودمار وهلاك.

أما بالنسبة للشق الثاني من سؤالك فأقول:

- الذين يديرون ظهورهم للحكماء من القوم، لا تفرض عليهم الحرب فقط؛ بل يُفرض عليهم كل شيء. الظل لا يثمر يا بني! فما بالك بمن

يستظل بعددٍ من الظلال؟ بعد أن فرضت علينا هذه الحرب ليس أمامنا إلا المقاومة، لأن الاستسلام هو الموت الحقيقي. الحرب قذرة وقذرة ثم قذرة... وأكرر القول: الحرب لا تنجب إلا الجريمة.

قبل أن يبدي شيركو رأيه، ويعقّب على ما قالته أم فرهاد، أقفل خَلّو الحديث بمقولته الشهيرة التي كانت يُرددها دائمًا على كل من يجالسه، ومن مختلف الفئات العمرية:

- (الأمة التي تعتبر الكتاب قنبلة موقوتة وتتحاشاه، ستنفجر فيه كل المآسي. وستبقى كالنجعة العرجاء والمريضة في مؤخرة القطيع لتكون فريسة يسهل افتراسها).

تفاجأ شيركو من هذه الحكمة التي قالها عمه خَلّو، فأراد أن يسأله بعض الأسئلة بغية الاستفادة منه. إلا أن أصوات الانفجارات الناتجة عن قذائف المدفعية التركية كانت قريبةً جدًّا من بلدة جنديرس. ولم تمض لحظات حتى سقطت قذيفة صاروخية بالقرب من منزل خَلّو، وأحدثت صوتًا قويًّا ومرعبًا، اهتزت الأرض من تحت أقدامهم، وتكسر كل بلور النوافذ والأبواب. ووقعت الطاولة التي كانوا يتغدون عليها أرضًا، وتكسرت بعض الأواني التي كانت عليها.

ولم تمض على سقوط ذلك الصاروخ سوى دقائق قليلة، حتى أخذت طائرة حربية تركية تحلق في سماء البلدة، واستهدفت بعدة صواريخ الحي الغربي منها. وبعد أن خلفت وراءها دمارًا وبعض الشهداء والجرحى من المدنيين غادرت إلى وكرها.

رغم ذلك القصف وتلك الهجمة الصاروخية بقي خَلّو جالسًا على كرسيّه الخشبي دون أن يناله الفزع. أما أُم فرهاد اتجهت مباشرة إلى خارج سياج دارها القريب من منزل جارتها أم رنكين. فشاهدت أن القذيفة الصاروخية قد استهدفت دارها وجعلته ركامًا على الأرض. ولا وجود لرنكين وأمها ولا لبقة أولادها الأربعة الآخرين.

قام خَلّو من على كرسيّه الخشبي، وأمسك بعكازته، وقال لشيركو الذي كان قد احتمى بنفسه خلف جذع شجرة الزيتون المعمرة التي كانت قريبة من باب المنزل:

- تعال معي بسرعة.

عندما أصبح خَلّو ومعه ابن أخيه شيركو خارج سياج الدار، شاهد بعض أهل الحيّ يحاولون إخراج جثة رنكين من تحت الأنقاض، حيث مكان الجريمة، وأُم فرهاد تضرب بيدها على ركبتيها وتقول بأعلى صوتها:

- إلى هنا يا ناس... إلى هنا. أسمع أنينًا من تحت هذه الكتل الإسمنتية. أعتقد أنه أنين روهات أخت رنكين الصغيرة.

اجتمع بعض الحاضرين حول تلك الكتل الإسمنتية، وهم يحاولون أن يصلوا إلى مكان الطفلة روهات. إلا أنه كان يصعب عليهم إخراجها.

في الجانب الآخر من البيت الذي سُوّي بالأرض تم إخراج جثة رنكين من قبل بعض أهل الحي، ووضعها تحت شجرة الزيتون التي تم تقطيعها إلى نصفين؛ نتيجة تلك الهجمة الصاروخية من قبل برابرة العصر.

بينما كان أهل الحيّ يبذلون كل جهدهم للوصول إلى الطفلة روهات، أملًا منهم أن يخرجوها وهي حية، كان شيركو واقفًا إلى جانب جثة رنكين

التي تشوهت، حيث لا وجود ليدها اليسرى، ولا لأصابع يدها اليمنى، ولا لملامح وجهها الملائكي الذي كان ينير قبل ساعةٍ من الزمن لارتكاب تلك الجريمة.

خلع شيركو معطفه الشتوي وألقى به على جثة رنكين بكل هدوء وهو يقول:

- على روحك السلام، وعلى قلبي الحب حرام. وكانت الدموع تنهمر من عينيه وكأنه يعرفها منذ الطفولة.

اقترب خَلّو من المكان الذي كان يصدر منه أنين روهات وقال للذين يحاولون إخراجها من تحت الركام بأيديهم:

- مهلًا إن ما تفعلونه غير مجد. تعالوا معي.

ذهب خَلّو إلى الجانب الأيسر من البيت وقال لهم:

- أزيحوا هذه الحجرة الكبيرة من مكانها.

فأزاحوها بسرعة، فظهر باب نفقٍ يَتسعُ لمرور شخص واحد. فقال لهم خَلّو:

- هذا النفق يصل إلى القبو الصغير الذي تحت المنزل، ومنه قد يمكنكم الوصول إلى الطفلة روهات.

في الحال دخل شيركو والكل واقفون ينتظرون ماذا سيحدث؟ هل سيتمكن شيركو من إخراج الطفلة روهات من تحت الركام حيّةً، أمْ أنه سيخيبُ أمالهم؟

لم تمر إلا دقائق وإذا بأنين الطفلة يقترب من الباب الخارجي للنفق. حينها امتزج حزن الحاضرين بشيء من الفرح لأنهم أدركوا أن شيركو سيأتي بالطفلة روهات.

خرج شيركو ومعه الطفلة روهات، لكنها كانت مبللة بالدماء، ولم يُعرف وجهها من قبل أُم فرهاد نتيجة الجروح والدم الذي بدأ بالتخثر على وجهها البريء، وهي فاقدة كفها الأيمن، وأصابع قدمها الأيمن. عندما حضنتها أم فرهاد فتحت عينيها لمرةٍ واحدةٍ ثم أغمضتهما، وتوقفت عن الأنين. كانت دموع أم فرهاد تسقط على شعر روهات المشبع بالدم ويفتت البقع المتخثرة منه.

قال خَلّو:

- ماذا تنتظرون؟! أوصلوها إلى أقرب نقطة طبية قبل أن تفارق الحياة.

فأخذ شيركو الطفلة روهات من حضن أُم فرهاد، واتجه راكضًا باتجاه النقطة الطبية ومعه شابان من شباب الحي.

ذهبت أُم فرهاد وجلست إلى جانب جثة رنكين، وكشفت عن وجهها، وبدأت تمسح الدم المتخثر من على وجهها بيديها، وهي تُردد اسم رنكين بصوتٍ حزينٍ فيه نبرة بكاءٍ، وتقول:

- رنكين... رنكين! كان حُلمَ أُمك هو أنْ تراكِ عروسةً، وتفرح بكِ. لكنها لم تعرف يومًا أنها ستكون هي وأنت وأخواتك معًا في عُرس الشهادة.

كان خَلّو واقفًا إلى جانب أُم فرهاد والدموع تنهمر من عينيه، وتسقط على شرواله العفريني الأسود.

جاءت سيارة بيك آب صغيرة وفيها ثلاثة شبان من البلدة واستأذنوا من أم فرهاد ليأخذوا الجثة إلى النقطة الطبية، ليدقنوها ليدفنوها في مقبرة الشهداء في صباح اليوم التالي.

قالت لهم أم فرهاد:

- قبل أن تأخذوا جثة رنكين، عليكم بمساعدة أهل الحي لاستخراج جثة الأم وابنتيها الصغيرتين نوجين وشهناز من تحت أنقاض بيتهن. ذهب الشبان الثلاثة لمساعدة أهل الحي، وبقيت أُم فرهاد إلى جانب جثة رنكين.

حاول أحد الشبان الدخول إلى النفق الذي أخرجوا منه روهات الصغيرة، عله يصل إلى مكان جثة أم رنكين وابنتيها، إلا أن طائرة حربية تركية عاودت التحليق في سماء البلدة، واستهدفت بصاروخ النقطة الطبية التي أخذ شيركو الطفلة روهات إليها.

صاح أحد الشبان إنها استهدفت النقطة الطبية... إنها ألقت بقذيفة صاروخية على الجرحى الموجودين في تلك النقطة الطبية التي أخذوا روهات إليها. هيا تفرقوا وابتعدوا عن المكان.

حامت الطائرة فوق القرى الواقعة إلى الغرب من البلدة، وعادت لتستهدف البلدة ثانيةٍ. هرع كل الذين كانوا يحاولون إخراج الجثث من تحت أنقاض بيت أم رنكين إلى منزل خَلّو القريب. إلا أن أمّ فرهاد احتمت بجذع شجرة الزيتون القريبة من نصف الشجرة التي كانت جثة رنكين تحتها.

ألقت الطائرة صاروخًا على ركام بيت أُم رنكين، وأحدثت صوتًا قويًّا، فتناثرت الكتل الإسمنتية وبقايا أحجار البيت كالقذائف في كل الاتجاهات. ضُرب حجر من حجارة البيت وبقوة شديدة بجذع شجرة الزيتون التي كانت أُم فرهاد محتمية بها، لكن دون أنْ يصيب أُم فرهاد. إلا أنه أحدث جرحًا عميقًا في أسفل جذع الشجرة التي كانت عمرها أكثر من خمسين عامًا.

بعد أن غادرت الطائرة سماء البلدة، خرج الشبان من البيت ومعهم خَلّو، واتجهوا بسرعة إلى مكان بيت أُم رنكين. لكنهم شاهدوا فظاعة الجريمة للمرة الثانية في نفس المكان. كانت أجزاء من جثة أم رنكين وطفلها متناثرة في المكان. أما الشاب الذي دخل النفق لمحاولة إخراج الجثث لم يكن له أي أثر سوى نصف رأسه وهو بين حجرتين من حجارة أساس المنزل. الكل وقفوا مصدومين من هول تلك الجريمة التي ارتكبت ضدّ الإنسانية عن عمدٍ.

وقف خَلّو خلف الشباب متكئًا على عكازته، ونظر إلى حيث كانت جثة رنكين، شاهد أن أُم فرهاد تُقَبلُ جُرح شجرة الزيتون، ومن ثم جلست وأسندت ظهرها على الجذع المجروح.

اتجه خَلّو إلى أم فرهاد ليطمئن عليها، إلا أنَّ أمّ فرهاد نهضت، وقَبّلَتْ ثانية الجُرح الحاصل على جذع الشجرة وصاحت بالشباب:

- ما بكم؟ اجمعوا تلك البقايا من الجثث قبل أن يحدث ما هو أروع من هذه الجريمة الشنيعة.

ركض شاب منهم إلى بيت أم فرهاد، وجاء ببطانيةٍ فوضعوا بقايا الجثث بما فيها نصف رأس الشاب الذي كان بداخل النفق، وأخذوها إلى بيت خَلّو. ثم رجعوا وحملوا جثة رنكين أيضًا إلى البيت.

بينما كانوا مجتمعين حول جثة رنكين، وبقايا جثة أمها وأخواتها الصغار، دخل شيركو وهو مبلل بالدم من صدره حتى أخمص قدميه، وقال بصوتٍ باكٍ:

- أُم فرهاد... أُم فرهاد! روهات استشهدت مع الطاقم الطبي في تلك النقطة الطبية التي استهدفتها الطائرة الغادرة.

عندما شاهد شيركو البطانية التي تم لفها على بقايا الجثث إلى جانب جثة رنكين، وقف دون حراك، ونظر إلى أُم فرهاد وهي تذرف الدموع بصمت، حينها عرف أن جريمةً بشعةً أخرى قد حدثت بالقرب من بيت أم فرهاد.

بينما كانوا واقفين صامتين، والبعض منهم يذرف الدموع، جاءت دراجة نارية ووقفت خارج سياج الدار، ونزل منها شابان، ودخلا بهو الدار. بعد أن سلما قال أحدهما:

- أنا اسمي خبات. كم هو عدد الشهداء؟

ردَّ عليه أحد الشبان:

- إنهم خمسة شهداء.

- حسنا. أين البيك آب الذي أرسلناه قبل ساعتين تقريبًا من أجل نقل الشهداء إلى النقطة الطبية السريّة في البلدة؟

ردَّ عليه سائق البيك آب قائلا:

- إنها أعطبت نتيجة قصف الطائرة نفس المكان الذي أتينا إليه لنقل الشهداء.

- حسنا... حسنا... سأذهب لأرسل لكم سيارة أخرى. المهم أن نعرف أسماء الشهداء الخمسة. من منكم يعرف أسماءهم لأدونها عندي؟

بقي الجميع صامتين دون أن يتفوه أحدهم ببنت شفة. حينها كان خَلّو جالسًا على الكرسي الخشبيّ. وكانت أُم فرهاد تمسح الدم المتخثر عن وجه رنكين. وكان الصمت سيد المشهد.

قال خبات وبنبرةٍ قاسية:

- ألم تسمعوني؟ من منكم يعرف أسماء هؤلاء الشهداء؟ حتى نأخذهم، ونقيم لهم مراسم الدفن في صباح الغد.

نهضت أمُّ فرهاد والحزم يشع من عينيها السوداوين، وقالت له:

- أنا التي أعرفهم جميعًا. لكن لن أعطيك أسماءهم.

قال خبات بنبرةٍ فيها شيء من الاستغراب والقساوة:

- لماذا يا خالة؟!

ردَّت عليه أُم فرهاد:

- هؤلاء الشهداء كلهم من أسرة واحدة، بالإضافة إلى تلك الطفلة التي اسمها روهات التي استشهدت في النقطة الطبية. وبين أشلاء الجثث التي في داخل البطانية، نصف رأس شاب كان يحاول إخراج جثث أفراد الأسرة من تحت الركام.

- يا خالة! الرحمة على الجميع. لكن لماذا تمتنعين عن إعطاء أسمائهم لأدونها، ونأخذ جثثهم إلى النقطة الطبية؟ حقًّا أمركِ غريب!

اقتربت أُمّ فرهاد منه بخطوتين، وقالت له:

- هؤلاء الشهداء بالإضافة إلى الطفلة روهات سندفنهم تحت شجرة الزيتون الجريحة. نعم تلك الشجرة التي زرعها جدّ رنكين منذ أكثر من خمسين سنة.

ثم التفتت إلى شيركو وقالت له:

- اذهب إلى تلك النقطة الطبية لتأتي بما تبقى من أشلاء لجثة الشهيدة روهات.

بدأت ملامح الغضب تظهر على وجه خبات، فقال بنبرة غير عفرينية وقاسية:

- هؤلاء الشهداء مع غيرهم سندفنهم غدًا صباحا بمراسم في مقبرة الشهداء، لا أريد نقاشا في الموضوع. وقال للشاب الذي معه: هيا لنأتي بسيارة من أجل نقل الشهداء.

أمسكت أم فرهاد بكتف خبات الأيمن وهزَّته بقوة وقالت له:

- الرحمة على كل الشهداء. إنهم شهداء عفرين. وهؤلاء مدنيون استشهدوا ونحن أهلهم، ولا ندفنهم إلا تحت شجرة الزيتون الجريحة. هل فهمت؟

نهض خَلّو من على الكرسي الخشبي وضرب بعكازته على الأرض وقال:

- نعم... نعم سندفنهم تحت شجرة الزيتون الجريحة. هيا يا شباب لنجهز قبرين أحدهما لأم رنكين وبناتها الأربعة. والآخر لنصف رأس الشاب الذي استشهد وهو يسعى لإخراج جثثهم جثثهن من تحت الأنقاض.

بعدما قاله خَلّو ظل خبات للحظات وهو صامت، ثم قال:

- الرحمة على الشهداء. نعم يا خالة...! نعم يا عم نعم! إنهم شهداء عفرين والأرض هي الأرض.

ثم ذهب والشاب الذي كان معه لمساعدة بقية الشباب لتجهيز القبرين.

بعد الانتهاء من مراسم الدفن المتواضعة جدًّا للشهداء الستة تحت شجرة الزيتون الجريحة، قالت أُم فرهاد للحاضرين:

- تفضلوا لنذهب إلى بيت عمكم خَلّو.

إلا أنَّ القذائف بدأت تنهال من خلف الحدود على البلدة والقرى المحيطة بكثافة. شكر الحاضرون أُم فرهاد، وانصرف كل واحدٍ منهم إلى وجهته بسرعة من ذلك الموقع.

وضعت أم فرهاد على كل قبر غصن زيتون وهي تبكي الشهداء وجرح الزيتون. أمسك خَلّو بيدها، وقال لها:

- هيّا يا أُم فرهاد! لنذهب إلى البيت.

وقال لشيركو الذي كان وحده هناك:

- هيّا يا ابن أخي، اذهب لتطمئن على أمك التي بقيت لوحدها في البيت. كما يبدو سنقضي ليلتنا تحت قصف وحشي.

- البارحة صباحًا ذهبت أمي مع إخوتي الصغار إلى مدينة عفرين، وهم في ضيافة خالي جمو. سأبيت الليلة عندكما، ولن أترككما وحيدين. لكن سأذهب إلى البيت لأبدل ثيابي، وأرجع إليكما بسرعة.

كان صوت أزيز محركات الطائرات الحربية التي تنشر الرعب والقتل والتدمير في كل مكان يعلو... وتعلو معه أصوات الانفجارات من قريب وبعيد... وتتصاعد أعمدة الدخان الأبيض والأسود نحو السماء حاملة معها رائحة الجريمة...، أصوات سيارات الإسعاف... لا كهرباء، ولا ضوء سراج الكاز، ولا حتى ضوء الشموع. كل ذلك كان طقس بلدة جنديرس في تلك الليلة. كان ليلة طويلة وقاسية، عنوانها الحقد والخوف والفزع، وقتل الرضع في أحضان الأمهات، وإلغاء كل أنواع الحياة.

كانت أم فرهاد صامتة، وكأنها كانت تقول: يا ترى كم حكاية ألمٍ وحزنٍ، وكم من قصةٍ وروايةٍ من روايات الرعب والبطولة معًا ستُنسج على نول هذه الليلة التائهة بين كل هذه الأصوات القاتلة؟

وكم شجرة زيتونٍ ستنزف سنينا أو عقودًا؟ لكن مهما كانت الأفاعي سامة ومميتة، فهي لن تستطيع أنْ تلدغ الرياح والشمس ولون الزيتون.

في تلك العتمةِ كانت عيون أُم فرهاد تشاهد الفصول المرتبكة من اللون الأحمر الفاتح من بعيد... وكانت تقول في نفسها: كم كانت رنكين جميلةً؟

كم كانت أم رنكين هادئةً وخلوقةً وحنونة؟! كم كانت روهات الصغيرة رقيقة عندما كانت تلفظ اسمي؟! كم أنتَ ظالمٌ أيها الزمن، ودون أخلاق، عندما تضاجع نفسك على أسرّة المُدن في وضح النهار وعتمة الليل...!!!؟

وإلى جانب أُم فرهاد كان زوجها خَلّو صامتًا أيضًا، وبين الفَينةِ والأخرى كان يأخذ نفسًا عميقًا، وهو في صمته، وكأنه كان يقول: نحن البشر قد تعجز ذاكرتنا عن استرجاع بعض الذكريات والأحداث والحروف. إلا أن ذاكرة الأرض لا تنسى حتى ما فعلت وحيدة الخلية بالتراب منذ الجبلة الأولى للخليقة. كم هو عار على العالم المُتَمَدن أن يبقى صامتًا أمام الذّين يخلفون عاهات في جسد البشرية، ويحولون الحدائق إلى نفاياتٍ وموت...!!!؟

كان شيركو أيضا صامتًا، لكنه نهض، وأحرق العتمة بنور الشمعتين اللتين كانتا بالقرب منه. ثم أخذ نفسًا عميقًا، وكسر طوق الصمت بالجملة الآتية:

- قد نستشهد نحن أيضًا عما قريب، وهذا أمرٌ عادي. لكنني أخشى أنْ يستشهد جبل الكُردِ أيضًا لفترةٍ من الزمن.

تلك الجملة التي قالها شيركو أثرت وبشكل عميق في أُم فرهاد، لكنها لم تتكلم.

كانت الطائرات الحربية للدولة التركية لا تغادر سماء كامل جبل الكُرد، وهي تفرغ حمولتها حيث تريد. والمدافع من خارج الحدود لا تتوقف من رمي القذائف باتجاه البلدات والقرى. وأصوات كافة أنواع الأسلحة الأخرى كانت تسمع في كل مكان.

حاول شيركو ثانيةً أنْ ينهي طقس الصمت في الغرفةِ وقال: قرأت ذات مرة نثرًا يقول كاتبه في مقطع منه:

(إنَّ زنزانةً أغفو فيها آمِنًا
لأوسَعُ عندي
مِنْ وطنٍ
لا أمانَ فيه!).

بهذا المقطع النثريّ تمكن شيركو من أنْ ينهي صمت أُم فرهاد فقالت: صدق القائل يا شيركو!

نعم يا بني! في هذا الشرق البائس هناك كثيرون الآن تحت التراب، كانت أمنيتهم هي أنْ يكونَ لهم وطنٌ آمنٌ. ولم يسلموا وتسلم عظامهم حتى بعد موتهم! فالمصفحات والدبابات والجنود الملطخة أحذيتهم بدماء الأبرياء تمشي على قبورهم. بين ضلوعي جمرات من النار تكاد أن تحرقني. موت بعض الملوك جريمة ارتكبت بسيف الزمن. ها أنا أنتظر أشتياغ[١] ، وفي هذه

[١] ملك من ملوك الإمبراطورية الميدية وفي عهد هذا الملك وصلت الإمبراطورية إلى عزتها.

اللحظات أشتاق إلى صلاةٍ في معبدِ تيشوبيّ[١] ، كفى لملائكة الحياة أن تعيش بين الظلام والموت... بين الرحيل المفاجئ والبقاء الجريح... بين جَمعِ حطام الذكريات التي انهدمت في دواخلهم، والعبور من ذواتهم الحزينة. هنا تُقتلُ الإنسانية بيد أبناء الظلام، ونسوة من يسمون أنفسهم أسياد العالم تعربدن بزينتهن التي تفوح منها رائحة دم الأطفال هنا وهناك.

تأفف، وقال بصوت فيه غصة ألم:

- من العار على العالم المتمدن الذي يدعي الحرية والسلام أن يرى الحزن والدموع والنحيب ولغة الألم في كل ركنٍ من أركان جبل الكُردِ الذي كان متربعًا على عرش الهدوء والمحبة والسلام.

ثم صمت قليلا، وأخذ نفسًا عميقًا، وقال:

- كم هذا العالم منافق...!!! عندما كنا صغارًا أنا وإخوتي لم نكن نتعب من اللهو والركض خلف الفراشات في فصل الربيع، بل حتى في فصل الخريف الذي هو نسخة قريبة من الربيع في جبل الكُرد. حينها كنا نستعجل الأيام كي نكبر، والآن وفي هذه الليلة العارية من الحياة، أرتجي الأيام أن تسرع بي إلى مترٍ تحت التراب.

من خلال ما قاله خَلّو، أدركت أُم فرهاد أن شيئًا من اليأس تسرب إلى نفس زوجها الذي لم يكن يومًا يعرف اليأس والكسل وحتى الحزن. فقالت بكل هدوء:

- مهما اشتدت الرياح والعواصف والأهوال تبقَ الجبال صامدة في وجههم. ومهما طال الظلام فهو يزول مع اللحظات الأولى للشروق.

---

[١] اسم إله ميتاني.

هزَّ خَلّو رأسه بهدوء وقال:

- ما قلتهُ لم يكن يأسًا يا أُم فرهاد! بل إنه ترنيمة من ترانيم وجع الروح. فالأرواح التي لا تتألم ما هي إلا جماد، وليست نقيض الجماد. نعم... نعم، الأصوات التي نسمعها الآن وهي تهزُّ كل أبنية البلدة، ليست تغاريد... ليست أناشيد فرح، ولا هي أصوات الرعد الذي يبشر الأرض بخير السماء. بل إنها تقتل الأرواح والهدوء والطمأنينة... إنها تقتل السلام والحضارة والإنسانية... إنها تقتل الحق والحرية والطفولة... إنها تبصق في وجه العالم الصامت الذي لا يعنيه سوى أرقام الحسابات في البنوك.

بعد أن أنهى خَلّو حديثه سقطت قذيفةً بالقرب من منزله، وهزَّت الحيّ بالكامل. قذيفة سقطت من رحم الحقد على الإنسانية، أحدثت تصدعًا في دارين من جدران الغرفة التي كانوا جالسين فيها؛ خَلّو وزوجته وابن أخيه شيركو. وخلعت درفة من باب الغرفة، وأخفت نور الشمعتين اللتين أشعلهما شيركو. وتركت خلفها أوجاعا، وخرائط من دم وألم بالقرب من منزل خَلّو.

بدأ الخوف يموج بشيركو، وأصبحت نبضات قلبه تزداد قوة، لكنه كان يحتمي بأغوار نفسه المتلاطمة.

بقيت أُم فرهاد دون أن يغزو الفزع قلبها، أو الشيب روحها، لأنها وطوال عمرها لم تتعلم مهنة الخوف، ولا دفعت بأحدٍ إلى حافة الانهيار. وكل مرةٍ إذا أراد الحزن أن يتسرب إلى قلبها، كانت كالريح التي تنفض الأوراق الصفراء من أغصان أشجار الزيتون والسنديان. التفتت إلى شيركو وقالت له:

- لا تدع الخوف ينال منك بالسهولة، ليكن قلبك نزقًا كالثوار لحظة الهجوم على أوكار الطغاة... لا تبالِ يا بني! هذه الليلة العاهرة المستيقظة بين سيقان طحالب العصر سنتجاوزها، وللصباح آياته.

بينما كانت أُم فرهاد تكافح تسرب الخوف إلى قلب شيركو بكلماتها، خيَّم هدوء حذر على البلدة. لا أزيز الطائرات، ولا صوت المدافع، ولا دويَّ الانفجارات. قال شيركو:

- نعم يا أُم فرهاد! نعم... للفجر آياته.

كانت الإنسانية تغتصب في تلك الليلة على طاولات كل الجمعيات الأممية (لحقوق الإنسان)، وكان جرح الزيتون ينزف على امتداد جبل الكُرد بفعل فاعل، وبرضىً من العواصم التي تدعي أنها سيدة ما يسمى بالديمقراطية...!!!

في تلك الليلة لم يزر النوم عيون العفرينيين إلى أن استيقظ الصباح على هول الجريمة والكارثة، مع أشعة الشمس الأولى التي أرادت أن تشق طريقها من بين سحائب الدخان والغبار الذي كانت تغطي سماء بلدة جنديرس وغيرها من بلدات وقرى جبل الكُردِ.

خرجت أُم فرهاد لتتفحص ما حصل للجيران وأهل الحيّ، إلا أن قبر أُم رنكين وأولادها، وقبر الشاب الذي دُفن إلى جانب قبرهم تحت شجرة الزيتون الجريحة، كان وجهتها الأولى في ذلك الصباح الذي كان له رائحة الدم والأنين. وقفت أُم فرهاد إلى جانب القبرين، وقالت بصوتٍ منخفض:

- رحمة الربِّ على أرواحكم، والسلام لشجرة الزيتون الجريحة.

قبل أن تغادر أُم فرهاد المكان لتتفحص الجيران، وبعض أهل الحيّ الباقين في منازلهم، جاء خَلّو برفقة شيركو لزيارة القبرين أيضا. وقف شيركو إلى جانب القبرين، وكانت عيونه على القبر الجماعي لرنكين وأمها وأخواتها، وقال بصوت مسموع:

- الحرب قذرةٌ، والأقذر منها أسيادها وتُجارُها.... رحمة الربِّ على أرواح كل الأبرياء الذين هم ضحايا قذارة الحروب أينما كانوا.

وكان إلى جانب شيركو عمه خَلّو، وهو ينظر إلى القبرين نظرة حزنٍ عميقة. وقال:

- لترقد أرواحكم بسلام! لعنة الرب على من يقتل البراءة كائنًا من يكون، وفي أي زمانٍ ومكان.

ثم ذهب، ووضع يده اليسرى على جُرح شجرة الزيتون بكل هدوء، وقال:

- ستبقين رمز السلام رغم أنف جميع ملوك الحرب في كل عصرٍ وزمان.

كان مكان القبرين قريبًا من الطريق العام الذي يصل بلدة جنديرس بمدينة عفرين. شاهدت أُم فرهاد عشرات السيارات والجرارات الزراعية والدراجات النارية ذات العجلتين وهي تتجه نحو الشرق عبر الطريق بسرعة، فأسندت ظهرها على شجرة الزيتون الجريحة، ووضعت يدها اليمنى على عينيها، ووقفت صامتة دون حراك.

اقترب خَلّو منها، وقال لها:

- ماذا بكِ يا أُم فرهاد؟!

بقيت أُم فرهاد صامتة دون أن ترد على زوجها، ولأول مرةٍ في حياتها الزوجية، فاستغرب خَلّو من صمتها! اقترب منها ووضع يدهُ اليمنى على كتفها، وهزّه بهدوء كعادته، وسألها ثانيةً:

- ماذا حلّ بك يا شيرين...؟!

رفعت أُم فرهاد يدها عن عينيها، ونظرت إلى الطريق العام، وبصوت جريحٍ وحزينٍ، وكأنه لحن من الألحان الجنائزية قالت:

- بدأت الكارثة العظمى يا خَلّو! بدأ الجرح الأعمق يا أبا فرهاد! بدأ الجرح الأكبر لأشجار الزيتون بالنزيف!

استغرب خَلّو من كلام أُم فرهاد، وسألها:

- أي كارثة عظمى؟! وأيّ جرح أعمق يا أم فرهاد؟! لا أفهمك في هذا الصباح...!

قالت له أُم فرهاد:

- انظر إلى الطريق العام، لترى ماذا يحدث؟ إنه النزوح... النزوح يا خَلّو. إنها الكارثة، وستخلف جُرحًا عميقًا في موطن الزيتون يا أبا فرهاد!

أسند خَلّو ظهره إلى جذع شجرة الزيتون الجريحة إلى جانب أُم فرهاد، وهو ينظر إلى حركة النزوح باتجاه مدينة عفرين، فبدأت الدموع تبلل جفونه المتعبة من سهرة تلك الليلة التي أمطرت فيها الويلات على البلدة والقرى المحيطة بها. فوضع يده على كتف شيركو، وقال له:

- يا بني! لم يعد باستطاعتي التحرك من مكاني. خذ بيدي لنذهب إلى البيت. أمسك شيركو بيد عمه، ليأخذه إلى البيت.

أما أُم فرهاد، فقد مسحت دموعها، وذهبت لتتفقد جيرانها، وتطمئن عليهم.

قبل أن تصل أُم فرهاد إلى بيوت الجيران، التفتت لأكثر من مرةٍ إلى الطريق العام، وفي كل مرةٍ كانت تقول:

- بدأ جُرح الأرض والزيتون يتعمق.

طرقت أُم فرهاد باب أول بيت من بيوت الجيران الذي كان على بُعد مئة مترٍ من بيتها، إلا أن أحدًا لم يفتح الباب.

ثم ذهبت إلى البيت الثاني، كذلك الأمر دون أن يكون فيه أحد.

وبينما كانت تطرق باب البيت الثالث، وصل جرار زراعي لأحد سكان الحيّ وعلى متنه نساء وأطفال إلى البيت الذي كانت أُم فرهاد واقفةً أمام بابه.

سألتهم أُم فرهاد:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

لم يتوقف الجرار، إلا أن سائقه قال وبصوت عالٍ:

- إلى حيث لا ندري، لم يبق أحدٌ في البلدة، ولا في القرى المجاورة.

أدركت أم فرهاد، بأن جيرانهم أيضًا تركوا بيوتهم، ونزحوا إلى وجهة غير معروفة.

تركت أمُ فرهاد بسمتها على الأبواب الخرساء، واتجهت نحو بيتها والحزن يصفع وجهها... وأصبح صمتها قاتلًا. أما وجهها فقد بدا مربدا عليه الكثير من الأسئلة المرتبكة.

كانت أم فرهاد تمشي وكأن خطواتها تتباكى لألم الطريق، وفي صمتها الذي كان يحتضن كل الضجيج كانت تتساءل وتقول:

- أجدادنا علّمونا حُب الأرض وابتسامات شجر الزيتون... ولَمْ يَسردوا لنا قِصَصَ الذُل... ولمْ يعلّمونا لغةً باردة وفارغة كالخوابي المصنوعة من الحَوار. يا ترى لماذا ينزحون عن رائحتهم بهذه السرعة؟ يا ترى هل نزوحهم فيه وجهة نظر؟

وصلت أمُ فرهاد إلى المنزل، وهي تتمتم بكلمات غير مفهومةٍ، وفي تفاصيل وجهها أكثر من رسالةٍ حزنٍ وألمٍ. بادرها خَلّو بالسؤال:

- ماذا عن جيراننا يا أُم فرهاد؟!

بقيت أُم فرهاد تنظر إلى الشقوق التي أحدثتها انفجارات القذائف في الليل في جدران الغرفة لحظة، ثم جلست بالقرب من باب الغرفة الذي يكشف مسافة من الطريق العام، وقالت:

- كانت بيوت الجيران خرساء يا أبا فرهاد! كما يبدو هُم أول مَنْ بثوا الضجيج في جسد الطريق! أهذا بداية التهجير القسري يا أبا فرهاد!

عندما كانت أُم فرهاد تتحدث، كان شيركو واقفًا وهو ينظر من الباب إلى الطريق العام الذي كان يزدحم من العربات المتجهة صَوب مدينة عفرين. وبعد أنْ انتهت أُم فرهاد من حديثها، قال شيركو:

- كما يبدو كُلنا سنهجر قسريًّا، ولو مؤقتًا، لأننا لا ندري ماذا سيحدث في الساعات القادمة؛ وخاصةً في الليل. أليس كذلك يا عمي؟!

إلا أن خَلّو لم يجبه، وبقي صامتًا. فخرج شيركو من الغرفة، واتجه نحو السياج الأمامي للدار، حيث كانت هناك كومة من التراب، ويشاهد من

عليها الطريق العام بشكل واضح. بقي شيركو هناك لدقائق، ومن ثم عاد إلى الغرفة وقال:

- لا يزال الطريق مزدحمًا بالعربات التي تتجه نحو الشرق يا عمي! هذا يعني أن هناك شيئا ما وخطيرا سيحدث خلال الليل يا عمي! ما رأيك؟

كانت أُم فرهاد تدرك أن شيركو أيضًا يريد أن ينزح إلى مدينة عفرين؛ ليلحق بأمه التي كانت هناك عند أخيها. لكنه كان يريد من عمه - الذي كان يعرف ماذا يريد- إذنًا بذلك، إلا أنه ظل صامتًا.

لم تستغرب أُم فرهاد من صمت زوجها خَلّو، لأنها كانت واثقةً بأنه غير راضٍ من التهجير القسري للسكان من البلدات والقرى في جبل الكُردِ باتجاه مدينة، وإفراغها أمام الغزو والاحتلال التركي، ولصوصية المجموعات المسلحة التي زجتها الدولة التركية في تلك الحرب القذرة.

فكانت أُم فرهاد تدرك مدى خطورة انسلاخ الإنسان من أرض الأجداد والآباء، والنزوح القسري هو بداية لكارثةٍ قد لا تُحمد عقباها؛ كونها الخطوة الأُولى المساعدة لجريمة التغيير الديمغرافي الذي كانت تسعى إليها الدولة التركية مع شركائها.

قبل أنْ تقول أم فرهاد شيئًا لشيركو الذي كان متوترًا، وهو يريد سماع جواب عمه، وقف جرارٌ زراعي أمام دار خَلّو. خرجت أُم فرهاد لتعرف لمن هذا الجرار؟ وعندما عاينته عرفت بأنه لصديق لخَلّو من بلدة شيّه (شيخ الحديد)، وكانت أسرته وبعض من أقربائه من النساء والأطفال وثلاثة رجال على متن الجرار.

رحبت أُم فرهاد بهم، وقالت:

- تفضلوا... تفضلوا.

نزل صديق خَلّو وحده من على متن الجرار، وسَلّم على أُم فرهاد، نادت أُم فرهاد زوجها وقالت:

- إنه شيخو يا خَلّو! إنه صديقك شيخو!

خرج خَلّو ونادى من أمام البيت:

- تفضل يا شيخو تفضل يا صديق العمر!

صافح شيخو صديقه خَلّو، واستعجل في السلام، ثم قال:

- يا صديقي خَلّو الوضع خطير في منطقتنا! لذلك قررنا أنا وأُخوتي النزوح مؤقتًا إلى مدينة عفرين، إلى أن تهدأ هذه الحرب اللعينة. فقلت لابني باهوز علينا أن نمرَّ على عمك خَلّو للاطمئنان عليه، وعلى أُم فرهاد أولًا، وإذا كانا يريدان الذهاب إلى عفرين لنأخذهما معنا.

شَكر خَلّو صديقه، وقال له:

- قبل أن أُسْمِعك قراري يا شيخو! قُل لإخوتك وأُسَرهم أن يترجلوا من الجرار، ويأتوا إلى البيت، لنشرب معًا شراب دبس العنب.

ردَّ عليه شيخو:

- شرابُ دبس العنب وفي هذه الحالة يا خَلّو؟!

ردَّ عليه خَلّو:

- كن هادئًا بِرا - يا أخي - ونادِ كل الذين على متن الجرار، ولا تكن عجلًا في أمرك.

لبى شيخو طلب صديقه خَلّو الذي كان يعزّه كثيرًا، فنادى إخوته ليترجلوا مع أُسرِهِم، ويشربوا شراب دبس العنب.

ترجل الكل دون أن يتفوه أحدٌ منهم بكلمة. رحبت بهم أم فرهاد وخَلّو أحر ترحيب.

أرادت أُم فرهاد تحضير الفطور لهم، إلا أن شيخو قال:

- لقد فطرنا في البيت. وإذا كان لا بد من كَرَمكم، نشرب الشاي الجبلي الذي يجمعه صديقي خَلّو بيده.

قامت أُم فرهاد لتحضر الشاي الجبلي، إلا أن شيركو قال لها:

- دعكِ مع ضيوفك، واتركي تحضير الشاي عليَّ.

نظر خَلّو إلى صديقه شيخو نظرة فيها أكثر من سؤال وقال له:

- هل بدأت النيران تشتعل بالتراب والصخر يا شيخو؟! هل دقت ساعة القساوة على جسد الريح وصلابة الجبال العنيدة يا صديقي؟!

كانت لأسئلة خَلّو وقعًا عميقًا على روح شيخو الذي كان يمضي أغلب أوقاته بين شجر الزيتون في سهل شيّه. أخرج من جيب شرواله العفريني علبة التبغ التي ورثها من جدّه ليلف سيجارة من تبغ حاكورته، إلا أن خَلّو ضيفه سيجارة من عنده، وقال له:

- التبغ الذي في علبتي هو أيضًا من تبغ حاكورتك. لُفّ منه، إنه ثقيل يليق بهذه الأيام التي لا تزيح بثقلها الدامي عنا.

- نعم يا أبا فرهاد! إنها أيامٌ تصبح فيها القرى أضرحةً، والجبال صرخة في وجه السماء، وتصبح السهول نداءات قاسيةً في آذان العالم الذي لا يخجل من قتل الأجنة في الأرحام.

نعم يا صديقي خَلّو! بينما كنا نأتي باتجاهكم كنت أسمع أشجار الزيتون تقول لي: لا تتركونا لِمَن يقتلون الحياة بحقدهم الأعمى. آه... يا خَلّو آه...! أخشى أن تسقط حنجرتنا في الأيام القادمة من الآهات.

كان جميع الحاضرين يسمعون حديث خَلّو وشيخو بتمعنٍ، وأمارات الحزن مرسومة على وجوههم. وكانت النساء تذرفن الدموع بحرقة وهنَّ صامتات. والأطفال ينظرون إلى أمهاتهم ولا يدركون سببَ رسائل الحزن على وجوههن. فكانت الابتسامات غائبة، وكأن الكل كانوا في عزاء صامت.

قال خَلّو:

- يا شيخو! موتنا في بيوتنا أفضل من الموت على الطرقات، أو في المخيمات. لذلك البقاء في قرانا، ولو في كوخ مصنوع من أغصان الزيتون، أو حتى تحت شجرة الزيتون أفضل من أن ندير ظهرنا لأرضنا، ونذهب إلى حيث لا ندري. حتى لو جعلوا من بلداتنا وقرانا رمادا، علينا عدم مغادرتها، وتقاسم صرخاتها. أليس كذلك يا صديقي شيخو؟!

بعد هذا الحديث أدرك شيخو والحاضرون أن خَلّو لا يريد النزوح عن بيته، مهما اشتدت قذارة الحرب. فردَّ عليه شيخو قائلًا:

- أنت على حق يا أبا فرهاد... لكن ماذا عن هؤلاء الأطفال؟ إنهم يرتعبون من دويِّ المدافع والانفجارات، وأزيز الطائرات التي تقصفنا ليل نهار.

أكدت أُم فرهاد كلام زوجها بقولها:

- الموت أفضل من أن نرى قُرانا وبلداتنا تغمرها ظلال الأشباح... ويلوّث ترابنا النقي بأقدام الأبالسة... نعم، كل تجار الحروب وأسيادها

أبالسة. لكن مهما اشتدّت شراسة التجار، لا يمكن للديدان أن تبتلع الشمس. معك حق يا شيخو في خوفك على الأطفال! المهم ألا نترك بيوتنا وأشجار الزيتون يتيمةً.

بعد أن انتهت أُم فرهاد من حديثها، استأذن شيخو صديقه خَلّو وقال له:

- نحن ذاهبون إلى مدينة عفرين، وقد لا نرى بعضنا بعضا مرة أخرى.

احتضنا بعضهما احتضان صداقةٍ عمرها أكثر من أربعين سنةٍ، ثم قال شيخو:

- أرجو من الربِّ أن نلتقي ثانيةً يا أبا فرهاد.

ردَّ عليه خَلّو بلهجةٍ حزينةٍ:

- وداعك كخنجر في صدر أيامي الباقية يا صديقي! وقلبي المنهك من الآلام سيبقى يداوي جُرح الزيتون من بعد فراق الأحبة والأصدقاء يا شيخو!

قبل أن ينطلق الجرار الزراعي بشيخو وأفراد أُسرته، ويسلك طريقًا على عكس طريقه اليومي الذي كان من أمام بيت شيخو إلى حقول الزيتون. قال خَلّو والدموع تملأ مقلتيه:

- صديقي شيخو! عندما يجرح الزيتون وتحزن الجبال على غياب أغنيات الكُردي، وتفتقر الوديان صدى صفيره، حينها تكون الإهانة الكبرى للكردي العنيد.

إلا أن الجرار انطلق وكان الصمت لغة الجميع.

حزنت أُم فرهاد كثيرا على فراقهم... وأخذت تردد في نفسها:

- هذا النزوح يدميني كسهمٍ يخترق قلبي وروحي...

كانت أُم فرهاد تخشى أن تنسى الابتسامة من بعد ذلك اليوم... وتسري في دمها أكثر من ثورةٍ ونداءٍ وحسرة... وهي أمام الدار قالت لزوجها خَلّو:

- أخشى ما أخشاه على هؤلاء الذين ينزحون قسرًا وخوفًا وهربًا من الموت، أن يترجلوا في أماكنَ يصعب عليهم العودة إلى حيث ولدتهم أمهاتهم، إلا عبر طرقٍ مفخخة بالألغام واللصوصية والموت... لك الأمر يا صاحب العرش العظيم، كم هذا الصباح قاسٍ وذو لون صحراوي...!!!

تمتم خَلّو ببعضِ الكلمات، واتجه بخطواته الثقيلة إلى المنزل، وعيناه تنظران إلى الأرض بحزنٍ عميقٍ:

- لماذا يحدُثُ لنا كل هذا الظلم والألم؛ ونحن أمةٌ مسالمةٌ؟! إنه عالمُ لا يخجل أمام إنسانية الإنسان... عالمٌ لا يرى دم الإنسان وهو يراق من أجل مصالحه، نعم... نعم، الدول التي تدعي الديمقراطية وحقوق الشعوب والسلم العالمي، عندما تحدد أهدافها تنسى كل ذلك، وتسير إليها بكل الوسائل، وفي طريقها تركل كل تلك الشعارات جانبًا.

عندما وصل خَلّو إلى باب المنزل استدار نحو اليمين، نظر إلى الطريق العام، وردد في نفسه: سأبقى وفيًّا للريح وشجر الزيتون، ولن أغسل فمي من طعم التراب. نعم... نعم سأبقى أتنفس صباحات جبل الكُردِ مهما كانت دامية.

وكانت أُم فرهاد تتمتم: قد يأتي الغرباء ويشتموننا، ويعلقون وجوهنا بالجدران، لكن موطن الزيتون لا يشتهي موتنا... لأن عيوننا لا تشتهي أن ترى أشجار الزيتون جريحةً. مهما انتشر الصمت في شوارع هذه البلدة، سأبقَ وأنشر في رحمها صدى البقاء.

أما شيركو فقد أزال قصة النزوح من باله، وقرر البقاء مع عمه خَلّو، وردد في نفسه: الموت في مناطق النزوح مجهول الهوية. سأُخبر أمي بأنني باقٍ هنا مع عمي خَلّو.

جلس خَلّو على الكرسيِّ الخشبي الذي كان بالقرب من شجرة الليمون الصغيرة، وبدأ يضرب برأس عكازته على الأرض بهدوء، ثم نظر إلى شيركو وقال:

- أعتقد أنكَ تريد الالتحاق بأمك، أليس كذلك يا شيركو؟!

ردَّ شيركو دون تردد وقال:

- لا يا عمي... لا! سأبقى هنا معكما. وسأشم معكما روائح الأيام والليالي القادمة بكل تفاصيلها. وكان بودي أن أسألك يا عمي:

- أين اختفت تلك الوجوه التي كانت تدير بلدتنا؟!

أراد خَلّو أن يبتسم قبل أن يجيب ابن أخيه، إلا أن الحزن منعه ثم قال:

- أية وجوه يا شيركو؟

قطف خَلّو ورقة من أوراق شجرة الليمون الصغيرة، وفركها بين كفيّه ثم شمها بعمقٍ لعدة مرات وقال:

- يا بني! عندما تشتد الرياح تَرمي بكل الأوراق المتساقطة إلى خارج

حدود الحديقة.... الرحمة على من سقى ويسقي جذور السماق والبطم والصنوبر بدمائهم الطاهرة. الأوطان لا تُبنى بالشعارات والكراسي يا بُني!

كانت أم فرهاد تُتمتم: يا ألله... أيعقل أن نترك جنتنا؟! لا أبدًا... أشجار الزيتون لا تقبل أن يختبئ البعوض بين أوراقها.

رغم أن خَلّو وأُم فرهاد كانا يدركان مدى خطورة بقائهما مع شيركو في بلدة جنديرس، إلا أنهما حسما أمرهما بالبقاء وفي بيتهم المتواضع.

مع اقتراب لحظات غروب الشمس توقفت حركة المرور من على الطريق العام، وخيَّمَ صمت مخيف على كامل البلدة. وبعد غروب الشمس مباشرة بدأت المدافع ترمي بقذائفها وبشكل عشوائي على القرى المجاورة والبلدة أيضًا لمدة ساعة وبشكلٍ متواصل.

بعد أن توقفت المدافع، حلقت طائرة حربية، وبدأت بتحويل البلدة إلى جحيم من التدمير بقذائفها الصاروخية، وتسوية الأبنية بالأرض. بدأ الخوف يتسرب إلى قلب شيركو وقال لعمه:

- ألم أقلْ لك إن البلدة ستتحول في الليل إلى جحيم!

ردَّ عليه خَلّو بصوتٍ حازمٍ:

- ألم أقلْ لكَ سأبقى هنا، وإن سُوّيت البلدة كاملة بالأرض، ولن أُدير ظهري لأشجار الزيتون وقبر أُم رنكين وأولادها.

ثم ختم كلامه: لن أُجبرك بأن تبقى معنا.

تعجبت أُم فرهاد من ذلك؛ فلم ترَ زوجها طيلة حياتها الزوجية يغضب أو يتوتر في حديثه مع الآخرين. فكيف ردَّ على ابن أخيه بهذه اللهجة الغاضبة؟

مع كل قذيفة كانت تسقط على البلدة، أو على أطرافها، كان البيت يهتز وتتساقط من جدران الغرفة المتصدعة بعض الكتل الإسمنتية الصغيرة. كلما كان الليل يتآكل، كان القصف يشتدّ أكثر. في تلك الحالة كان خَلّو يتذكر وجوه أصدقائه الغائبين والذين رحلوا إلى مثواهم الأخير. ويردد في نفسه: الغائبون في التراب لا يرجعون، والغائبون في الطرقات يجهلون مصيرهم، وجبل الكُردِ أصبح نافورة حمراء والعالم مصاب بعمى الضمير والإحساس والإنسانية.

وكان رأس أُم فرهاد ملفوفا بشريط من الحزن على ما يحصل للقرى والبلدات التي تُقتل بصمت، وكانت تردد في نفسها: يا ترى كم من الوسائد شبعت دمًا؟ هل بقي موضعٌ من هذه الأرض الطيبة دون جراح؟

وكان شيركو في زاوية الغرفة دون حراك ويردد في نفسه: لن أخشى الموت، ولا الطريقة التي سأموت بها الليلة، لكن أخشى أن أبقى حيًّا، وأقع أسيرًا بين أيدي من لا يخافون الرّب.

وبينما هو يردد ذلك، تذكر صاحب العمامة والحديث الذي دار بينهما في المرةِ الأُولى والثانية. فقال لعمه مباشرةً:

- يا عمي! هل تتذكر الحديث الذي دار بيني وبين صاحب العمامة؟

- ما الذي ذكرك بصاحب العمامة وحديثه في هذه الليلة التي تمطر علينا جحيمًا يا شيركو؟!

- نعم يا عمي! أعتقد أنَّ صاحب العمامة باقٍ في البلدة، ولم يغادرها. نعم... نعم يا عمي! وأعتقد أيضًا أن هذا الرجل كان يلعب دورًا استخباراتيًّا مع الدولة التركية، أو أنّه كان يعمل لصالح المجاميع المسلحة التابعة لتركيا.

- ما فائدة هذا الكلام؟! ونحن لا نعرف في أيّ لحظة نموت بقذيفةٍ

غادرة، أو صاروخ، أو حتى قنبلة؟ وماذا لنا أن نفعل له، أو لغيره؟ ونحن في هذه الغرفة المظلمة التي تهتز بنا من دويِّ القذائف والانفجارات؟

- يا عمي!

قاطعت أُم فرهاد شيركو، وقالت:

- يا بني! دعكَ الآن من صاحب العمامة والدور الذي لعبه ويلعبه حتى هذه اللحظة. لنترك هذا للزمن؛ فهو كفيلٌ بكشف كل الأقنعة لنا في وقته. المهم أن تمضي هذه الليلة علينا بسلام، وحينها كما يقال: لكل حادث حديث.

في تلك الليلة كما التي قبلها كان جبل الكُرد يعيش عاصفةً من القصف العشوائي... وكان الزمن كنعش على أكتاف الليل ويمضي به إلى تاريخ دامٍ... كانت دائرة الحياة تضيق وتضيق ثم تضيق على كل شيءٍ على طول جبل الكُردِ وعرضه، كان كُل من خَلّو وأم فرهاد وشيركو في تلك الغرفة المظلمة والمتصدعة يردد في نفسه: هل سنبقى ونشاهد الصباح قبل أن يخترق الرصاص جسدي؟!.

في تلك الحالة وبينما كان الليل في بداية نصفه الأول تذكر شيركو كلمات سبارتاكوس للقيصر، ثم رددها في نفسه بصمت:

من قال لا في وجهِ من قالوا نَعَمْ
من قال لا فلم يَمُتْ؛
وظل رُوحًا أبديّة الألمْ!
معلّق أنا على مشانق الصباحْ
وجبهتي - بالموت - محنية
لأنني لم أحْنها حَيَّةْ!

عندما يتذكر الإنسان أقوال الأحرار وكلماتهم وهم يخطون نحو الموت قبل لحظة الإعدام، ينسى كل المفردات في قواميس الانحناء. ومن يخشَ الردى من الطغاة، يكن نصف ميت في الزمانِ والمكان.

هناك من ينتصر في ساحة المعركة...

هناك من ينتصر في المحكمة...

هناك من ينتصر في وجه الشيطان...

هناك من ينتصر على الذل والخنوع...

وهناك من ينتصر عليه الموت وهو حيٌّ!

والتين والزيتون والكردي... ووطنهم الجريح بيد المحيطين بهم بعيدًا وقريبًا، فكيف للكردي أن يُصدق كذبة (نحن إخوة في الدين) ومقولة (نحن إخوة في الإنسانية) وهو يُطعن على شاشة العالم وسط ازدحام المشاهدين من الأطياف والأديان والمذاهب كلها، ومن العواصم البعيدة والقريبة كلها...؟!

كيف للكردي أن يتحمل كل هذا الظلام الذي يلفه بفعل فاعلٍ، وهو ينتظر من الشمس أن تشرق عليه ليخرجَ من برك الدم الملحّ؟

مع شروق الشمس خرست المدافع وصوت الانفجارات، وبدأت أصوات الأسلحة الفردية تسمع في شوارع البلدة بشكل متقطع، ومعه أصوات التكبير: الله أكبر. وقف شيركو على قدميه وقال:

- يا عمي... يا عمي! أظن أن البلدة احتلت. إني أسمع أصوات التكبير. نعم. جنديرس احتلت يا عمي...!!!

هزَّ خَلّو رأسه وقال:

- أَسمَعُ ما تَسمعه يا شيركو!

ثم ردد في نفسه: هذا التكبير هو قهقهة الجريمة واللصوصية ليس إلا. ثم قال: الله أكبر على الظالمين الذين يستغلون الدين لأطماعهم وأحقَادهم. واللعنة على كل من يقتل وينهب ويدمر وهو يردد الله أكبر والعزّة لله.

بدأت الأصوات تسمع قريبًا من بيت خَلّو، وبعض الرصاص يقع على جدران الغرفة المتصدعة التي كانوا فيها. فوقفت أُم فرهاد إلى الجانب الأيمن من باب الغرفة، وبقي خَلّو جالسًا في مكانه، أما شيركو فقد كان يتحرك داخل الغرفةِ وهو متوتر. قالت أُم فرهاد لهما وبصوت منخفض:

- عليكما الجلوس في الجانب الأيسر من الباب.

فَعَلا ما أرادت منهما أم فرهاد.

كانت الأصوات تتعالى في الخارج: الله أكبر والعزّة لله... لقد حررنا جنديرس من الملحدين والكفرة...!!!. لم يمضِ الوقت طويلًا وإذ بالرصاصات تخترق باب الغرفة التي كانت فيها أُم فرهاد وخَلّو وشيركو، لكن دون أن تصيب أحدا منهم. خُلِعَ القفل، وفُتِح الباب على مصراعيه، فصاح أحد المسلحين قائلًا:

- هل من أحدٍ في البيت؟

ردَّت أُم فرهاد بنبرةٍ من العزم ومن دون وجلٍ:

- نحن أهل الدار موجودون، كُفّوا عن إطلاق الرصاص!

ثم خرجت من الغرفة، وقالت لهم:

- ألا تخشون الله أيها السفلة، وأنتم تخلعون أبواب البيوت على أهلها الآمنين؟!

فردَّ عليها أحد المسلحين:

- نحن جُند الله المسلمون أيتها العجوز الملحدة!

ثم قال لبقية المسلحين:

- هيا، ادخلوا المنزل، فتشوه جيدا، وخذوا حذركم؛ قد يكون فيه إرهابيون.

وقفت أُم فرهاد أمام الباب، وقالت لهم:

- يا من تدّعون أنكم مسلمون وجُند الله! الذين يقتحمون البيوت، ويرهبون أهلها بالرصاص والقتل هم الإرهابيون. ألم تسمعوا بالآية الكريمة التي تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾[1].

استهزأ أحد المسلحين بها، وقال بلهجة عامية:

- (بَيِنْتَا العجوز مسقفة كمان). بمعنى: كما تبدو العجوز مثقفة أيضًا.

وجّهَ مسلح آخر فوهة رشاشه إلى أُم فرهاد، وشدَّ على الزناد، وأفرغ عدة طلقات بالقرب من باب الغرفة بغية ترهيبها. إلا أنَّ أُم فرهاد بقيت ثابتةً في مكانها، وقالت لهم بصوتٍ عالٍ:

- لن أخشاكم حتى لو أفرغتم طلقاتكم كلها في صدري؛ فمن لا يدافع عن نفسه وبيته وأهله لا كرامة له، ولا يستحق الحياة. اللعنة عليكم يا مرتزقة.

---

[1] النور: ٢٧.

عندما كانت أُم فرهاد واقفةً في باب الغرفة وهي تواجه المسلحين، كان خَلّو واقفًا خلفها مباشرةً، وكان يشدُّ بيده الأيمن على عكازته بكل قواه. وكان شيركو في زاوية الغرفة يردد في نفسه: ليت كل الناس على جرأة أُم فرهاد وشجاعتها.

تقدم مسلح ذو لحية طويلة وهو مدجج بالسلاح وعلى خاصرته تتدلى مجموعة من القنابل اليدوية وسكينٌ، فأمسك بأُم فرهاد بيدٍ واحدةٍ وأوقعها أرضًا. في تلك اللحظة رفع خَلّو عكازته، وضرب بكل قواه على رأس ذلك المسلح وطرحه أرضًا، فغاب المسلح عن الوعي وبقي على الأرض دون حراك. نعم... إنها كانت ضربة الشهم عندما يغضب.

تقدم مسلح آخر إلى خَلّو لينهال عليه بالضرب وهو يشتمه، فكانت عكازة خَلّو كفيلةً بإسكات ذلك المسلح أيضًا وطرحه أرضًا كما الذي قبله. حينها وقف شيركو خلف عمه خَلّو، ونهضت أُم فرهاد من على الأرض وهي تقول:

- تهاجمون النساء وكبار السِّنِّ يا من تدّعون أنكم مسلمون يا أيها الأفّاكون؟!

أمر شيخهم أن يسعفوا المُسَلَّحينِ اللذَينِ طرحهما خَلّو بعكازته أرضًا وغابا عن الوعي إلى أقرب نقطة طبية عائدة لهم.

كان عدد المسلحين يزيد على العشرة، فقال أحدهم:

- يا شيخ! هؤلاء إرهابيون علينا أن نتخلص منهم على الفور.

ردَّ عليه شيخهم:

- لا... لا تقتلوهم. دعونا نأخذهم إلى المَقَر لنستجوبهم. لا بدَّ أن تكون لديهم بعض المعلوماتِ عن الإرهابيين. لكن ادخلوا الغرفة، وفتشوها جيدًا.

تقدم المسلحون إلى خَلّو وأم فرهاد وشيركو ليربطوا أيديهم خلف ظهرهم، ويأخذوهم إلى السيارة التي كانت واقفةً بالقرب من دار خَلّو. فهزَّ خَلّو بعكازته في وجوههم وقال:

- دعوا تلك الشرائط في جيوبكم، فلن أدعكم تربطون أيدينا خلف ظهورنا. سنمشي إلى السيارة دون تلك الشرائط وتلك الأكياس السوداء التي في أيديكم، وإلا سنموت –الثلاثة- هنا.

خرج أحد المسلحين من الغرفة وقال:

- يا شيخ! لم نجد في البيت كله من الممنوعات سوى عشرات من الكتب القديمة (صفراء الورق).

- أحرقوها والمنزل معًا. لا شك أنها كُتُب الملاحدة... أحرقوها.

صاحت أُم فرهاد في وجه شيخهم:

- أحرقوا البيت، لكن الكُتب لا... لا... لا تحرقوها. إنها كتبي.

قهقه الشيخ بتهكم وقال:

- عجوز تفضل الكتب على بيتها، يا للعجب!!!

ثم صاح بالمسلحين وقال:

أحرقوها والمنزل معا... أحرقوها.

ثم صاح ببقية المسلحين:

- خذوا هؤلاء الإرهابيين إلى السيارة، وأوصلوهم إلى مقر المحكمة الشرعية.

قبل أن تنطلق السيارة بهم إلى جهة يجهلونها، ألقت أُم فرهاد نظرة على قبر أُم رنكين وأولادها الذي كان قريبًا من مكان وقوف السيارة، في حين كان خلّو ينظر إلى جُرح شجرة الزيتون. تلك الشجرة التي حمت أُم فرهاد من الموت المحتوم. كان شيركو يتذكر وجه رنكين الملائكي.

عندما انطلقت السيارة نظرت أُم فرهاد إلى الخلف لتلقي نظرة الوداع الأخيرة إلى بيتها، رأت النيران مشتعلة فيه فأغمضت عينيها، وهي تردد في نفسها:

- سبحانك يا باري!! ليتني كنت في البيت وأحترق مع كتبي التي ورثتها من أبي...!!!

ثم قالت وبصوتٍ مسموع:

- اللعنة على أهل ثقافة الظلام.

كانت السيارة تسير بسرعة في طريقٍ ترابيّ نحو جهة الغرب. لم تمض طويلا وإذ بها تخرج على طريق قرية الحمّام الحدودية وزادت من سرعتها. كان خَلّو ينظر إلى حقول الزيتون على جانبي الطريق وهو يشاهد مناظر تدمي القلب والروح والإنسانية حيث عشرات أشجار الزيتون مخلوعة من جذورها نتيجة القصف بالصواريخ وقذائف المدافع والدبابات. وبعض الأشجار كانت محترقة تمامًا، وبعضها كانت عاريةً عن أوراقها نتيجة تحليق الحوامات عليها من علو منخفض. إنه جُرح الزيتون بكل معنى.

مع مشاهدته لتلك الجراح كان خَلّو يقول في نفسه:

- ليتني مُتّ هناك أمام منزلي؛ ولم تر عيني ما أشاهده من جراح الزيتون...!!!.

وبين الفينة والأُخرى كان يأخذ نفسًا عميقًا، ويردد في نفسه:

- يا أبي اعذرني! ها هو ابنك الكهل يشاهد جُرح أشجار الزيتون دون أن يتمكن من مداواتها...!!

كانت أُم فرهاد تتذكر عنوان كل كتاب عن ظهر قلب، وترتّبه في مكتبتها الخشبية الصغيرة. وهي تردد في صمتها:

- عذرًا يا أبي عذرًا...!!! أعرف أن روحك تتعذب في هذه اللحظات التي تَحَوّلَ فيها كنزك الثمين الذي أورَثته لي إلى رماد. ليتني احترقتُ معه يا أبي...!!!.

وصلت السيارة إلى قرية الحمّام وهي تسير بالسرعة نفسها، كانت منازلها مهدمة، ودخان الحرائق يتصاعد من بعضها، وهي خاليةٌ تمامًا من سكانها، وكأنها خارجة للتو من جبهات الحرب العالمية الثانية.

كان في القرية صديق عزيز لخَلّو وداره تقع بالقرب من الطريق. نظر خَلّو إليه فشاهده قد سوي بالأرض، وبقرته الحلوبة كانت مقتولة تحت شجرة التوت وعجلها الصغير واقفٌ إلى جانبها ينظر إليها.

دخلت السيارة إلى الأراضي التركية دون أن يوقفها أحد من الحراس والمسلحين. ووسط سهلٍ إلى الجهة الغربية الجنوبية من قرية الحمّام دخلت السيارة إلى مقر عسكري ذي مساحة واسعة مرفوع عليه العلم التركي.

وقفت السيارة أمام غرفةٍ، خرج منها مسلحان بلحى طويلة، ووقفا أمام باب السيارة، وقال أحدهما للسائق:

- هؤلاء هم الإرهابيون الذين حاولوا قتل المجاهدين، أليس كذلك؟

فَرد عليه السائق:

- نعم. هذا الذي بيده العكازة هو الارهابيّ الأكبر.

أنزلوهم الثلاثة من السيارة، وبدأ أحد المسلحين ينهال بالضرب على شيركو، وأحيانًا يركل خَلّو بقدميه، ويشتمهم، إلى أن أدخلوهم إلى الغرفة. أراد خَلّو ولعدة مرات أن يضرب ذلك المسلح الذي كان يشتمهم، إلا أنَّه كان متعبًا، ولم يكن واثقًا من ضربته، هل ستكون قاضية أم لا؟ ولذلك كان يتردد.

كانت الغرفة سابقة الصنع؛ فيها طاولة، وخلفها شخص بزيّ عسكري، لحيته طولية، وبشرته سمراء، ورأسه كبير. وعلى الطاولة لافتة صغيرة عليها عبارة مكتوبة عليها: المحكمة الشرعية، باللغة العربية ومن الأعلى باللغة التركية.

قال أحد المسلحين للشخص الجالس خلف الطاولة:

- يا شيخ! هؤلاء الإرهابيون الثلاثة حاولوا أن يقتلوا المجاهدين بعد أن حررنا بلدة جنديرس من الملاحدة. وأولهم أبو الشروال الأسود- مشيرًا ببارودته إلى خَلّو - حيث إنه ضرب اثنين من الجهاديين بعكازته، وطرحهما أرضا، وهما الآن في النقطة الطبية للمعالجة.

تغيرت ملامح الشيخ، ونظر إلى ذلك المسلح نظرةَ استخفافٍ، وقال له:

- خذ هذه المرأة وضعها بين النساء المعتقلات، والإرهابيّ الثاني ضعه بين الإرهابيين في الغرفة رقم /٢/. أمَّا صاحب العكازة فسأحقق معه حالا.

كان خَلّو واقفًا أمام الطاولة، وهو متكئ على عكازته، ووقف خلفه مسلحٌ وإصبعه على الزناد. نظر المحقق إلى خَلّو من أخمص قدميه حتى رأسه الذي كان عليه شماخ أحمر اللون. وكان خَلّو ينظر إلى عيونه نظرة صقرٍ، وكأنه يقول له: كن جريئًا وابدأ التحقيق يا صاحب اللحية!!.

سأل المحقق خَلّو:

- ما اسمك الثلاثي؟، واسم أمك؟

لم يرف جفنا خَلّو، وقالَ بصوت ملؤه الحزم:

- خَلّو الكردي بن مستو وزينب.

- ما معنى خَلّو، ماذا يعني اسمك؟

- ما علاقة معنى اسمي بالتحقيق؟

قال المحقق وبنبرة غاضبة:

- عليك أن تجيب على الأسئلة بدون مناقشة، وإلا سأعطي الحكم، وانتهى الأمر.

ثم مرر أصابعه من بين لحيته الطويلة، وقال:

- الحق على الّذين أوصلوك إلى هنا.

وتمتم بينه وبين نفسه:

- وكأنهم لم تكن لديهم طلقات...!!!

كرر سؤاله:

- ما معنى اسمك أيها الإرهابيّ؟!

قبل أن يجيب خَلّو على سؤاله، دخل الغرفة شخصٌ لابس بزة عسكرية حليق الذقن والشارب، وتكلم مع المحقق بلغة عربية مكسرة، ثم جلس إلى جانبه، ومعه دفتر وقلم. وقال للمحقق: باشر التحقيق.

سأل المحقق من جديد عن اسمه الثلاثي واسم أمه. فجاوبه خَلّو.

- إلى أي حزب سياسي تنتمي؟، وما علاقتك بالإرهابيين الكُردِ الملاحدة؟

- أنتمي إلى الإنسانية، والكُرد ليسوا بملاحدة ولا بإرهابيين كما تدَّعون.

احمر وجه المحقق والشخص الجالس إلى جانبه، فقال له المحقق:

- إن لم تكن إرهابيًّا فلماذا قتلت الأحرار من المجاهدين؟!

وأقول لك للمرة الأخيرة: أجب حسب السؤال. وإلا سننهي التحقيق، ونسوقك إلى ما تستحقه من جزاء.

إلا أن حليق الذقن والشارب قال للمحقق:

- دعه يُجِبْ كما يريد.

هزَّ المحقق رأسه، وقال له:

- تمام أفندم... تمام.

سأله:

- ما علاقتك بالإرهابيين؟

استفزَّ سؤال المحقق خَلّو فشدَّ يده على عكازته، وقال:

- الكُرد لا يعرفون الإرهاب، ولا يؤمنون به كثقافةٍ، ولا يتخذونه أسلوبًا في القتال والمواجهة. الكُرد شعب يعاني من ظلم تاريخي وقع عليهم، وحتى الآن تمارس عليهم صنوف الظلم والاضطهاد كلها... ومنذ سنوات يواجهون كل أنواع الإرهاب التي يحاول أصحابها به القضاء علينا.

بدت علامات الغضب أكثر وضوحًا في وجه المحقق وهو ينظر إلى خَلّو، وكأنه مجرم حقيقي واقفٌ أمامه. ثم سأله بلهجة جافة، ونظرات مليئة بالحقد:

- من تقصد بكلامك أنهم أهل الإرهاب؟

ردّ خَلّو على سؤال المحقق دون أن يرف له جفنٌ، وقال:

- الذين يقتلون الأبرياء من الأطفال والنساء والعجائز على الهوية القومية والدينية والمذهبية... الذين يهدمون البيوت فوق رؤوس أهلها... الذين يؤمنون بثقافة تفخيخ الإنسان ويرسلونه ليفجر نفسه بين الناس في الشوارع والأسواق، ويعدّون ذلك ذروة الشهادة... الذين يمثلون بجثث البشر، ويذبحون الناس كالنعاج... الذين يُحوّلون القرى والبلدات والمدن إلى خرابٍ ورماد... الذين يحرقون الكُتُبَ، ويجرحون أشجار الزيتون، هل هم ملائكة؟ نعم... الّذين ينكرون وجود أمةٍ وكل ما لها من أرضٍ وثقافةٍ وتاريخٍ وحضارة، ماذا يمكن أن نقول عنهم؟

تفاجأ المحقق والشخص الجالس إلى جانبه بجواب خَلّو، فصاح المحقق بالمسلح الّذي كان واقفًا خلف خَلّو، وقال له بلهجة غاضبة:

- خذ من هذا الإرهابيّ الكهل عكازته واكسرها.

سحب المسلح العكازة من يد خَلّو وهو يحاول كسرها. إلا أن المسلح لم يتمكن من كسرها، فهي مصنوعة من شجرة السنديان العصيّة في جبل الكُردِ. فصاح المحقق:

- ألم تتمكن من كسر عكازةٍ يا أبو يَعرب... إنها عكازة...!!!

ردَّ عليه أبو يعرب:

- إنها قوية وقاسية يا شيخي... إنها يابسة كرأس كُرديّ جبلي.

صاح الشيخ المحقق على المسلحين الّذين كانوا خارج الغرفة، فجاء ثلاثة منهم، وقال لهم:

- خذوا هذه العكازة، وأحرقوها.

تعجب الشخص الذي كان جالسًا إلى جانب المحقق من تصرفاته، وسأله:

- ما قصة هذه العكازة يا سيد حمزة؟

ردَّ عليه الشيخ المحقق حمزة:

- اسأل صاحبها الإرهابي عما فعله بتلك العكازة يا أوزال، إنها تستحق وصاحبها الحرق.

توجه أوزال بسؤاله إلى خَلّو، وقال له:

- ما قصة هذه العكازة يا عجوز؟

ابتسم خَلّو، وقال بكل هدوء:

- عكازتي هي التي كانت وراء تفجيرات البرجين التجاريين في نيويورك ومبنى التجارة العالمي...

عكازتي هي السبب فيما يحدث في الشرق الأوسط من خراب ودمار وقتل وذبح... عكازتي هي التي تعذّب السجناء بأبشع أنواع العذاب في سجون العالم...

عكازتي هي التي حولت بلدات وقرى جبل الكُرد إلى خراب ودمار... عكازتي هي التي تأمر بشنق الأحرار في العالم...

عكازتي هي التي تنتهك الأعراض، وتشرعن اللصوصية والسبي... عكازتي هي سبب التخلف والجوع وفقر الملايين من البشر عبر العالم، عكازتي هي

ممولة الإرهاب وراعيتها، لذلك كان من الأجدى أن تمتثل أمام محكمة الجنايات الدولية في لاهاي قبل إحراقها.

قال أوزال:

- أتستهزئ بنا يا عجوز... أم أنك تخَرف وتهذي؟! هل تعلم أنك بهذا الكلام تُشدد العقوبة عليك؟ يبدو أنك إرهابيٌّ حقًّا. أجب على السؤال: ما قصة عكازتك؟

ردَّ عليه خَلّو:

- أتكئ عليها لتساعدني في المشي، وفي صباح هذا اليوم دافعت بها عن عرضي وبيتي أمام أكثر من عشرة مسلحين أوقعوا زوجتي أرضًا، وأحرقوا بيتي. نعم هذه هي قصة عكازتي الإرهابية التي تم حرقها. لكن الحقيقة أنها أُحرقت لأنها عكازة كرديٍّ عنيد.

قام أوزال وقال للشيخ حمزة المحقق:

- حكم هذا الإرهابي شهران، ثم خرج من الغرفة، وأخذ معه الدفتر الذي كتب عليه الحكم. نادى الشيخ حمزة المحقق المسلحين، وقال لهم:

- خذوا هذا الإرهابي إلى المعتقل، وضَعُوهُ في الغرفة رقم /٧/ مع بقية الإرهابيين.

نظر خَلّو في وجهه ولحيته الطويلة، ثم هزَّ برأسه وقال له:

- من عاش هذا العمر كله بين أشجار الزيتون، لا ينتمي إلا للإنسانية، لكن كما يبدو أنه أصبح من الضروري سجن الإنسانية وقتلها بحجة مكافحة الإرهاب الذي يهدد الأمن العالمي...!!!

لم يرد شيخ حمزة المحقق على خَلّو، فقال للمسلحين:

- مروا على الغرفة رقم /٢/، واجلبوا الإرهابيّ شيركو.

عندما كان المسلحون يأخذون شيركو إلى غرفة التحقيق وحينما هم يمرون من أمام بعض الغرف سابقة الصنع- لمح شيركو صاحب العمامة وهو جالس على كرسي إلى جانب طاولةٍ. تأكد لشيركو أن إحساسه لم يخنه حول عمل صاحب العمامة الذي كان يعمل خطيبًا في أحد جوامع البلدة.

أدخلوا شيركو إلى غرفة التحقيق، فكان الشيخ حمزة المحقق آخذًا موضعه على الكرسي خلف الطاولة. وقف شيركو أمام الطاولة وخلفه مسلحان جاهزان لتنفيذ الأوامر التي ستصدر من المحقق.

لم يكن شيركو متوترًا ولا خائفًا، بل كان واقفًا كوقفة الحق أمام الباطل؛ لأنه كان متأكدا من براءته.

نظر الشيخ حمزة المحقق إلى شيركو نظرة حقدٍ، وسأله نفس أسئلة صاحب العمامة التي سألها إياه قبل شهرٍ أو أكثر في بلدة جنديرس. فردّ شيركو بالأجوبة نفسها على أسئلة صاحب العمامة دون تردد.

أغضبت أجوبة شيركو الشيخ حمزة المحقق، فنهض من على الكرسي وقال له:

- تبًّا لك أيها العلماني الملحد الإرهابي. أنتم أعداء الله والرسول والمسلمين. أنتم المفسدون في الأرض بين بني البشر... وورم خبيث يجب استئصاله من جسد البشرية.

دون أن يتردد شيركو، ردَّ على الشيخ حمزة المحقق وقال:

- الملحد هو من يعادي الإنسانية وحق الإنسان في الحياة... الإرهاب هو

من يُشرّع قتل الأبرياء والأجنة في الأرحام... الإرهاب هو الاستمتاع بقتل الإنسان بدمٍ بارد وتكفير الآخرين بمجرد أنهم ليسوا على دينهم أو مذهبهم أو على خلافٍ معهم في الرأي... أمَّا العلمانية فتسعى إلى خلاص البشرية من الأوهام والخرافات ومن كل ما يعيق طريق البشرية إلى الرقيّ والتطور والحضارة...

لم ينتهِ شيركو بعد من كلامه حتى أمر الشيخ حمزة المحقق المسلحين بأن يأخذوه إلى ساحة المعتقل ويجلدوه مئة جلدة. ومن ثم يَرمُوه في الغرفة رقم /٧/.

نفذ المسلحون أوامره مباشرةً، وبدأوا بضرب شيركو وهو في غرفة التحقيق، وأخذوه إلى ساحة المعتقل لجلده.

بينما كان المسلحون يجلدون شيركو في ساحة المعتقل، مرَّ صاحب العمامة بالقرب منه وهو ينظر إليه ويبتسم، ثم وقف أمام باب غرفةٍ ليتفرج عليه وهو يُجلد. أكمل الجلادون مئة جلدة، وبشكل عشوائي على جسد شيركو، لكن دون أن يتفوه أو يستعطف الجلادين الثلاثة، أو يتوجع.

استمر أحد الجلادين في جلد شيركو، فقال قبل الجلدة الأُولى من بعد المئة:

- هذه من أجل خلاص البشرية من الأوهام.

وقال قبل الجلدة الثانية:

- وهذه من أجل خلاص البشرية من الخرافات.

وقال قبل الجلدة الثالثة:

- وهذه من أجل سعيك إلى رقيّ البشرية.

وقال قبل الجلدة الرابعة:

- وهذه من أجل سعيك إلى تطور البشرية.

وقال قبل الجلدة الخامسة:

- وهذه من أجل سعيك لإيصال البشرية إلى الحضارة.

أمَّا الجلدة السادسة فهي من أجل كلمة العلمانية أيها الملحد.

سلخ جسد شيركو، وصار ينزف دما من شدة ضربات الجلد.

بينما كان المسلحون يأخذون شيركو إلى الغرفة رقم /٧/ كان صاحب العمامة لا يزال واقفًا أمام باب تلك الغرفة، وهو ينظر إلى شيركو مبتسمًا. وعندما وصل بالقرب منه بصق شيركو في وجهه. لم يعرف المسلحون بأنه بصق في وجه صاحب العمامة، ظنوا أنه يبصق الدم من فمه. فرموا به إلى الغرفة عند عمه خَلّو.

بعد مرور ساعتين على التحقيق مع شيركو وجلده، أمر الشيخ حمزة المحقق بأن يأتوا بأُم فرهاد ليحقق معها.

لم تكن أُم فرهاد تعرف ما فعله المسلحون بشيركو، ولم تعلم أيضًا عن حرق عكازة زوجها خَلّو. عندما أدخلوها إلى غرفة التحقيق، قالت مباشرة للشيخ حمزة المحقق:

- ألا تخجلون من أنفسكم عندما تحققون مع النساء يا صاحب اللحية الطويلة؟! تدَّعون الإسلام وأنتم تحرقون العلم وتجرحون الشجرة المباركة عند الله، ألا تخافون الربّ؟! أين زوجي خَلّو وابن أخيه شيركو؟

طأطأ الشيخ حمزة المحقق رأسه وهو ينظر إلى الخنجر الذي كان على الطاولة.

استمرت أُم فرهاد في الكلام وقالت:

- ارفع رأسك وانظر إليَّ يا صاحب اللحية الطويلة! ألا تخجلون من أنفسكم وأنتم تقتلون الأبرياء وتنهبون الناس باسم الدين. ألم تسمعوا بالآية الكريمة التي تقول: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[١]. فماذا سيكون حُكمكم عند الله وأنتم تقتلون الناس بدون حق وتدّمرون القرى والبلدات والمنازل على رؤوس أصحابها دون وجه حق وتحرقون العلم والشجر والحجر؟

تمتم الشيخ حمزة المحقق وقال في نفسه:

- ليتني لم أطلب التحقيق مع هذه المرأة العجوز.

وردد في نفسه:

- كما يبدو أنها امرأة مؤمنة، والتحقيق معها سيحرجني.

ثم رفع رأسه وقال لها:

- يا حاجة... يا حاجة!

قاطعته أُم فرهاد وقالت له:

- لا تنادِني بهذا اللقب، فأنا لم أحج، ولم أرمِ بالحصاة على ما يسمونه بالشيطان. فبئس الشياطين من بني البشر.

---

[١] المائدة: ٣٢.

غضب الشيخ حمزة المحقق، وتغيرت ملامحه، وبدأ يمشط لحيته بأصابعه، ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- كفى...!! أجيبي على الأسئلة التي سأطرحها عليك فقط.

ردّت أُم فرهاد عليه دون تردد:

- لتعلم مسبقًا أن كل أسئلتك ستكون باطلةً شرعًا وقانونًا وإنسانيةً. ووجودي هنا أمامك وفي هذه الغرفة الباطلة مخالف للشرائع السماوية والوضعية ولو أني أعرف أنَّ العالم أصبح حليف الشر. لكن قُلْ لأسيادك ومشايخك الّذين يفتون لكم: الحق لا يمتثل في محاكم الباطل. وسيبقى الحق منتصرًا مهما حَكَمَ الباطل. واتلُ عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ ﴾[١].

نهض الشيخ حمزة المحقق من على الكرسي، وقف خلف الطاولة، وقال لأُم فرهاد:

- أنتِ تتهمين المجاهدين باللصوصية، وجهادهم بالبُطلان، وهذا يكفي أن نحكم عليك بأشد العقوبات. نحن أتينا لنحرركم من الإرهابيين والملاحدة.

فردَّت عليه أُم فرهاد:

- إذا كنتم تظنون أننا نخشاكم ونخشى عقوباتكم فأنتم مخطئون.

---

[١] البقرة: ٤٢.

ثم تابعت:

- مهما دار الظلم بالزمن، ونكّل بالأيام، لن ننتهي بمكره، ولا يمكن للصوص أن يسرقوا الأرض من دمنا وعيوننا... أو أن يسرقوا وجودنا... وهيهات أن تخيفونا بمحاكمكم الساخرة.

صرخ الشيخ حمزة المحقق في وجه أُم فرهاد صرخة مُهانٍ، وقال لها:

- أيتها العجوز الشمطاء! سننهيكم من على وجه الأرض بإذن الله الواحد القدير. فنحن جُند الله على الأرض.

ابتسمت أُم فرهاد ابتسامة سخرية في وجه الشيخ حمزة المحقق، وردّتْ عليه قائلةً:

- حقًّا أنتم جُندٌ للصوصية والارتزاق على الأرض... وكما يبدو أن لكم إلهًا خاصًّا بكم غير ربّ الأرض والسماوات!!! ستنهون الكُرد من على وجه الأرض... وستغرقون اليهود في البحر... ومن منكم يهدر دم قبطيٍّ سيدخل الجنة دون سؤال... والمسيحيون يجب تطهيرهم من جغرافية الشرق البائس لأنهم من الضالين... يا للعجب من أمركم وفكركم التكفيري!!! تفعلون ما يحلو لكم، وتتناسون ما أمركم به الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[1].

---

[1] الحجرات: ١٣.

بعد أن قرأت أُم فرهاد الآية، خرج الشيخ حمزة المحقق من خلف الطاولة، ووقف أمام أُم فرهاد، وبدأ الغضب يغزو وجهه الذي أتعبه النفاق، وقال لها:

- أأنت ستعلمينا ديننا أيتها الكردية؟

ثم صاح بالمسلحين، وأمرهم بأخذها إلى الغرفة رقم /٧/ عند زوجها وشيركو.

بين صمت العواصم في الشرق والغرب... وصمت الكنائس والكاتدرائيات ومآذن المساجد... وصمت العواصم التي يحاكم فيها سائق سيارة إذا دهس قطةً أو كلبًا أو حتى جرذًا... وصمت العالم الذي يتخذ من النفاق استراتيجية ومنهجًا لها، كان جبل الكُرد يُقتل في كل أوقات الصلاة لكل الأديان.

كانت الطائرات في كل لحظة تضيف لونًا جديدًا على لوحة الجريمة... وكانت المدافع دون انقطاع تَزيد أشواطًا من الدمار على جسد منطقة جبل الكُردِ التي لم تعرف يومًا لغة الدمار، ولا تعرف كيف تتوزع رائحة الاحتراق على أحلام الإنسان.

كان على لسان كبار السِن أعجز الأسئلة، وفي عيون الأطفال ضجيج الرعب والخوف؛ وهم ينظرون إلى عيون أمهاتهم اللواتي تذرفن الدموع بصمت...

كانت المشافي والمراكز الطبية تسهر مع جريح، وتستيقظ مع شهيد... وكانت الطواقم الطبية تصارع النوم والزمن في مهرجاناتٍ من الدم والآهات والبكاء والأنفاس الأخيرة لمن فقدوا أقدامهم أو سواعدهم أو حتى أجزاءً من أحشائهم...

كانت طرقات القرى والبلدات التي تؤدي إلى مدينة عفرين، قد تحولت إلى مصايد من القتل جوًّا وبرًّا في كل الأوقات... وكانت على أطرافها أشجار الزيتون تبكي على جثث وهي تعانق التراب بدمائها...

كانت الجبال تزاور السماء تتعجل عدالة عرش الرحمن... ثم تصغي إلى الأودية التي كانت تئنّ لأنين السهول وأوجاعها. وكانت المروج مضطربة من خطوات الجراد...

كانت عواصف هول الكارثة تجتاح أعماق كل عفرينيٍّ وعفرينيّة، وكان الكل مندهشا يتساءل: هل يمكن أن يحتضر الفجر بين فكي الظلام...؟ وكيف تعلو الظلال في جسد الظلام دون ضوء القمر...؟ وكيف ينحدر النهار بين مطارق المساء بخمار الحزن...؟

كانت مدينة عفرين ترضع من ثدي جراحاتها وآلامها وأوجاعها، وفي العاصمة التي ولدت الماركسية فيها كانت الفودكا من طعم دماء الأطفال تثمل الرؤوس مع قهقهة العاريات...!!!

وتحت القبة البيضاء كان الكلام يباع بعد استئصال المعاني. ويبقى السائل الأسود أغلى من الدماء...!!! أيُّ عالمٍ هذا أصابه عمى الضمير والوجدان...!!!؟

في النهار كان ضوء الشمس الذهبية يختلط بشعاعٍ أخضر من دم الشهداء... عفرين المدينة كانت محاصرة من كل الجهات، وأمام الحواجز كانت طوابير من الأجساد المطعونة بكل الآلام تُمنع من العبور إلى أحضان جبل ليلون حيث الصخور ونوع من العناد....

ويلاه... ويلاه...!!! كان القتل بكل الأصناف من جهات الغرب والشمال والشرق والجنوب... ومن الجنوب القريب من المدينة كان اتهامٌ ومنعٌ وإهانةٌ؛ دون أن يعرف أحد مسوِّغا للكلمات الطاعنة من القريب....

كانت مواويل من الجراح بين أضلع كل المدنيين العُزْل تحرث السماء ليل نهار، ودون أن تنبت أملا، أو حتى فرصة من طرد الرعب المتفق عليه من العالم كله ليجتاح كُرد جبل الكُردِ...

لأيامٍ وليال انقطعت كل السبل عن تلك الطوابير البشرية؛ لتتحرك إلى أماكن قد يجدون فيها شيئا من الأمان... حتى الاتصالات أصابها الشلل التام؛ دون أن يعرف الأبناء من خلف البحار والمحيطات ماذا يحصل للآباء والأُمهات...

إن لم تصطدم السيارات بعضها ببعضها في ذلك الزحام، كانت الحجارة تنهال عليها مِن أهل الحواجزِ... وأسباب كل ذلك لم يكن لها لونٌ ليراه العفرينيون...!!!

كما الكثير من المرات، بسط شهر آذار أجنحة الألم والدم والأنين والعذاب والويل على الكُردِ في رئة كردستان... وكانت بين الجرح الأعظم ونوروز ثلاثة أيام. كانت عيون الصباح تمتلئ بأحداقٍ مليئة بالرعب وسط صمتٍ يعوي...

كل العيون كانت تتساءل... كل القلوب كانت تنبض بأسئلة خرساء... كل الآذان كانت متعبةً من الفرمانات الهابطة... كل الألسنة كانت تردد المسرحية بلغةٍ من صمت؛ لتتفجر بركانًا من الحقيقة في الغد القريب...

انزاح الساتر الترابي بصاروخ حاقد دموي بربري من السماء، فتدلت رأس مئذنة الجامع، وتفحمت بعض السيارات، وتصاعد الدخان الأسود منها نحو زرقة السماء... تموجت الطوابير البشرية والسيارات نحو الخلف، ثم نحو الأمام، وسط رائحة الاحتراق والدم.

اندفعت الطوابير باتجاه جبل ليلون دون انقطاع، وأصبح طريق جبل الأحلام كدرب النمل أيام حصاد القمح، لكن كان خفّ إبل الألم يسير معهم ليكْمِلَ النقص في لوحة التراجيديا على جبين العصر...

في أحضان أيام وليالي النصف الأخير من آذار الأسود كانت الأسئلة على ألسنة العفرينيين هي: من مات؟

لكن دون أن يسألوا كيف وأين دفن؟! ومنهم من كان يقول: من يملك يومًا يموت فيه على أطراف جبل الكُردِ سيكون محظوظًا...!!!

تحولت الطرقات والوديان والصخور وكل بقعة من شيروا الواقعة في الجهة الشرقية الجنوبية من جبل الكُردِ إلى مسرح يعرض الزمن عليه كل فصول المأساة والمعاناة على العالم دون خجل...

النسوة ولدن في العراء دون طبيبة أو ولّادة... وبعضهن فقدن حياتهن مع الطلقة الأخيرة، ومنهن مع الصرخة الأولى للوليد.

كم من العجائز حجزن قبرًا لهن بجانب رجوم الحجارة، أو بالقرب من الطريق. وكم من طفلٍ وطفلةٍ نالت منه/ا براثن البرد والجوع والمرض والخوف في تلك الجبال بين الصخور وغابة الصنوبر، وبين ظلام الليالي القارسة والقاسية...

كم من امرأة حامل أجهضت نتيجة صوت قذائف المدافع التي كانت تسقط بالقرب منهن في تلك المنحدرات التي أصبحت مسرحًا لكل أنواع وأصناف الألم والمعاناة!!.

كم من امرأة أجهضت نتيجة وقوعها على الصخور وهي في مسيرة الهجرة القسرية إلى وجهةٍ غير معروفة الهوية... ارتوى تراب الطرقات بالدموع والآهات والدماء...

كان هناك من يبكي، ويبكي معه الحجر والطرقات... ومن النساء من كانت تنظر إلى السماء نظرة استغاثة، وتحمل الرياح رسائل بلغة الألم المستنفر في سراب الأوجاع...

من بين تلك الحشود البشرية التي كانت تفترش الأرض وتعيش كل المعاناة، كانت بعض الطواويس البشرية تشق طريقها نحو الأحضان الدافئة لها في الجنوب القريب... كم من البشر وضعوا نظارات سوداء أمام أعينهم، ودون أن يلتفتوا يمينًا أو يسارًا، حتى لا يشاهدوا ما كانوا حتى الأمس القريب أسواقًا لترويج بضاعتهم الـ... !!! أكملوا الفراغ كما ترونه مناسبًا.

تحولت شيروا بقراها وبجيوبها الترابية بين ازدحام الصخور إلى أسرّةٍ من الآلام، ورداءة الحياة العابرة إلى أيامٍ غامضة حتى تستعيد الهوية ذاكرتها من جديد....

أما عناوين نزيف المعاناة التي كانت تُصَفُّ على رفوف ذاكرة الأُمهات في تلك البراري القاسية، لا يمكن إسقاطها من عيون الأيام والليالي حتى آخر فصلٍ من فصول البقاء...

تحولت الأطراف الجنوبية الشرقية من شيروا إلى أسواقٍ لتهريب البشر إلى بضعة كيلو مترات بمئات الآلافٍ من الليرات، كل اللعنات على تجار الحروب وأسيادها أينما كانوا، ومَنْ كانوا، وكيفما كانوا.

كل أشياء العفرينيين كانت رخيصةً حتى أرواحهم في ذلك المحيط المزدحم بالأسواق والبازارات، إلا تهريبهم إلى بلدتي نبل والزهراء كان أغلى من تهريب المخدرات...

تهريبهم بمئات الآلاف من الليرات السورية، أو بضعة مئات من الدولارات. لدى وصولهم غرفة عارية بخمسين ألف ليرة سورية، وفرشة واحدة بخمسة آلاف.... ازدحمت الجوامع والحسينيات بالصغار والكبار... لا ماء، ولا زاد، ولا فراش... حتى الأرصفة تحولت إلى فنادق ذات خمسين نجمة تحت الصفر، بشرط أن يكون المبيت دون شخير...

اجتمعت في حياة العفرينيين كل ألوان المرارة والحموضة، وهم بين صنارة الموت والمأساة والتجارة بهم على حدود مملكتي النهب على مرأى من أصحاب ربطات العنق والمعاطف السوداء التي كانت ترتديها أجسادهم المزيفة، والَّذين كانوا حتى الأمس القريب يدَّعون أنهم سادة...؟!!!

كانت الأيام العشر الأخيرة من آذار ذابلة ورديئة، وتموت فيها الطفولة في أحضان الأُمومة التي كانت تعلو صرخاتها عاصمة السماء...

طفلة شقراء عمرها ثلاث سنوات فقدت حياتها من البردِ، دفنوها بالقرب من كنيسة رومانية قديمة بالقرب من مدفن المار مارون وبدون كفن.

رضيعٌ أتعب ثدي أُمه دون أن تتوقف زقزقة معدته، ففارق الحياة قبل شروق الشمس، ودفن دون تلقين. لم تكترث الأم لعدم القدرة على تلقينه؛ فما التلقين إلا بدعة وكلماتٌ من النفاق في وسط بحرٍ وأمواجٍ من المأساة...

طفلٌ نال منه أبو الصفار دون أن يجدوا له ملعقةً من دبس العنب أو العسل، فدفن جسده الأصفر في مرجٍ حزين تحت ترابٍ جريح...

طفلةٌ ذات عيون خضر وشعر ذهبيّ اللون ضاعت في غابة الصنوبر، وفي الصباح وجدوها في جرفٍ وهي تتنفس أنفاسها الأخيرة. قبل الظهيرة. كان نحيب أمها يهز صلابة صخور جبل ليلون، ووريت الثرى في مقبرة ليست فيها رفات أحدٍ من بني جلدتها...

صبيٌّ في الثالثة عشرة من عمره خطفه الموت من حزنه الشديد على أمهِ التي فقدت حياتها بحادث جرار زراعي في أول طريق جبل الأحلام عندما كانوا يهربون من الموت...

صبيةٌ في الحادية عشرة من عمرها نالت منها رصاصة طائشة وخطفت روحها، ودفنها أهلها مع ثيابها على طرف الطريق، بغية نقل رفاتها في وقتٍ لاحق حين العودة إلى قريتهم التي كانت تتألم من الجراد والذباب.

ثلاثة أطفالٍ ابتعدوا قليلًا عن مكان جلوس أهلهم في غابة الصنوبر ليلعبوا قليلًا، انفجر فيهم صاروخ غير متفجر ألقته طائرة حربية تركية قبل أسابيع. جمع النازحون أشلاء جثثهم في كيسٍ بلاستيكي، ودفنوها تحت شجرة صنوبر في تلك الغابة.

نعم... إنه غيضٌ من فيضٍ من تراجيديا قتل الطفولة في أحضان منطقة جبل الكُردِ - عفرين - وجمعيات حقوق الطفل كانت صماء وعمياء، ينكحهم الدولار واليورو والجنيه الإسترليني وغيرها من العملات في عواصم الغرب والشرق.

كانت الصخور أرحم من قلوب البشر في حماية الكبار والصغار من الويلات، لو تنطق تلك الصخور في شيروا، لنطقت بقصصٍ من الآلام تعجز عن سردها أقلام المبدعين من الأدباء والمؤرخين... لو تنطق الطرقات في شيروا الجبلية وروبار السهلية، لبكت عيون السماء وأرواح الرسل والأنبياء، والصحابة وتلاميذ يسوع...

بينما كان شيخو صديق خَلّو جالسا على صخرة من صخور جبل ليلون وهو ينظر من بعيد إلى سهل جنديرس وسفوح الجبال والمنحدرات التي تغطيها أشجار الزيتون، ويرى أعمدة الدخان تتصاعد من البلدة، تذكر صديقه خَلّو وهو يتخيل كيف كان يتكئ على عكازته أمام منزله، ويبكي جرح الزيتون. بدأت الدموع تنسكب من عينيه، وتسقي ذقنه المتعب من هول الكارثة. فتمتم:

- كان خَلّو على حق عندما قال لي: علينا ألا ندير ظهرنا لأشجار الزيتون، ونذهب إلى حيث مجهول الأيام.

كانت أيام العُشر الأخير من شهر آذار أكثر قساوةً ورعبًا. وكانت السيارات تتسلق كالنمل جبل ليلون عن طريق جبل الأحلام. كانت كل الألوان غائبة في ذلك اليوم إلا لوني الأسود والأحمر الحزين.

إلى جانب شيخو أسندت زوجه فيدان ظهرها على صخرةٍ كبيرة، ونظرت إلى مدينة عفرين التي كانت تبكي دمًا على فراق عشاقها، ورددت في نفسها: أليس الجُرح الصامت موتًا من نوعٍ آخر؟!. ثم سألت شيخو: لماذا حدث ويحدث لنا كل هذا يا شيخو؟!

هزّ شيخو برأسه وقال بحسرة:

- آه يا فيدان آه...!! إنها عاصفة الظلام في وجه النور. إنه حقد الرياح الشمالية العدو التقليدي للبراعم والزهور يا فيدان!

قالت له متأسفة:

- ألم يكن بالإمكان تفادي هذه الجريمة التي وقعت بنا وبموطن الزيتون يا شيخو...!!! وهل سيلتئم جُرح الزيتون قريبًا، أم أنه سيبقى نازفًا لزمنٍ طويل؟

في عالم تلك المأساة والآلام لم تكن للأسئلة الصعبة أن تجد أجوبة شافية، رغم ذلك ردّد شيخو في نفسه:

- الأسهم تلاشت، وتلاشت معها الكثير من الأحلام والأماني، لأن بعض الصرافين منا لم تكن تهمهم سوى الأنانية المفرطة و....!!! سأترك للأجيال القادمة المعطوف الأخير.

ثم التفت إلى زوجته فيدان، وقال لها بنبرة حزينة:

- ما فائدة الأسئلة والأجوبة في اللحظات التي يحترق فيها المكان والزمان يا فيدان...؟!

امتدت موجات الآلام وجُرح الكُرد العفرينيين في شيروا[١] وباتجاه الشرق المتوتر أصلا، لكن ليس ببعيد. وسُدّت أمامهم كل الطرقات عمدًا، ومن كل الجهات، وكأنهم نفايات نووية ستجلب لهم كل الأمراض الفتاكة. فكان العفرينيون يسأل بعضهم بعضًا بين لهيبٍ من الغيظ والقهر: أيُّ عهرٍ هذا...!!! الكل متفقٌ على خنقنا...؟!!! إلى متى سنتنفس داخل معاطف الآلام بصمت؟!!

مضى شهر آذار وجعبته محشوة بكل ألوان العار للعالم المتمدن... مضى شهر آذار دون أن يهتز ضمير ذلك العالم أمام هول الجريمة التي كانت وصمة نفاق عميقة على جبينه... مضى تاركًا عورة العالم المتحضر في غُرفٍ مكشوفةٍ ليستمر نكاحها بقضبان النقيصة...

بدأ الزمن يسير دون أن يلتفت إلى الأرض التي بدأت تئن من الجثث ونداءاتٍ محترقة وسط صمتٍ مختفٍ في صمتٍ أعمق... كان الزمن يسير وأمهات عفرين يسقين الأيام والليالي دموعًا وسط سلاسل من أوجاع الروح... كانت الأيام تمر آخذة معها عناوين مَنْ ماتوا على مداخل الليل... وتمضي الليالي في زمنٍ أصم دون أن تسمع صوت الحق الذي كان يذبل في طقوسٍ من جفاف الأخلاق...

كان الجرح ينزف جراحًا في الجرح... ومات العالم في قلوب الذين امتدَّت في قلوبهم كل أنواع الجراح... وضاقت بأهل الزيتون كل السبل وهم مشردون في حدودٍ ضيقةٍ يجترون ما تنزفه جراحاتهم... وأوقاتهم كانت تتغذى بزفيرهم وشهيقهم المثقلين بآهاتٍ مشبعة ببخار الروح الجريح...

---

[١] شيروا: القسم الجنوبي من جبل ليلون. تابعة لمنطقة عفرين..

بعيدًا عن بيوتهم وأرضهم وأشجارهم الجريحة، كانوا يداوون العذاب بالعذاب... وبعيدًا عنهم كانت ينابيع جبل الكُردٍ تستغيث عطشًا بعيدًا عن دغدغات الشعراء... وبين شفاه شهر نيسان كانت حياة العفرينيين تجف بين أنياب المعاناة...

كم من كهلٍ احترقت أجفانه من ازدحام اللوحات الدامية...!!! وصدر العجائز كانت تشويها جمرة الحزن على المساءات التي كانت تجمعهن مع الأحفاد في بهو الدار بين غمزات زهرات الياسمين البيضاء...

في هذه الهجرة القسريّة المبرمجة، تحول رأس كل امرأة إلى طاحونة يديرها أنينٌ وصمتٌ قاتل، وأحيانًا ببوح الأفكار المنسوجة دون تفاصيل... الكل كان يهدهد دمه من الفوران حتى في وجه الربِّ، وفي النهاية كانوا يقولون لبعضهم البعض: ما علاقة الله إذا كان وكيله العقل في الإنسان يسوده الجهل وعناوين الخذلان؟!

الضِّيق في كل شيء حتى في الهواء... الضِّيق في كل شيء حتى في الكلام والآهات... الضِّيق في كل شيءٍ حتى في السماع لأصوات الحيوانات. حتى التصالح مع النفس كان صعبًا وصعبًا ثم صعبًا... هكذا كان يقتلهم فراقهم عن الجبل والزيتون.

حتى البكاء ضاق بهم، وهم في إمارة التشرد المحبوكة لهم على نول الخديعة... كفرٌ وجريمةٌ في شريعة الكُردي أن يخطو على جثة الإنسان حتى في ساحات المعارك والقتال، فكيف يكون الحال بالنسبة له وهو يخطو على بقائه، ويترك أرضه كجثّةٍ ليخطو عليها الغرباء...

في تلك الضائقة للتهجير القسري، وليس ببعيدٍ من رائحة جبل الكُردِ، صرخ بعض المهجّرين قسرًا، وأطلقوا صفارة البدء بالعودة إلى حيث رائحة الأجداد، وقصص العشق للزيتون والسنديان: كفى... اجترار الألم، إنه شهر نيسان لنحلق كالطيور باتجاه جبل الكُرد، فالقنص لا يبلغ الطائر الحر... لنزحف كالحنش نحو رائحة أزهار الرمان... اشتاقت إلينا سواقي البساتين رغم ألمها العميق... أهلَكَتنا الوعود والقيل والقال... دعونا نواجهْ كل تيارات الصعاب، ونغدُ نحو عش وجودنا، إنه أفضل من ضياع وطن تبكي عليه الأجيال.

افتراش الشوك في أحضان أرض الآباء والأجداد أفضل من خيمٍ يهان فيها الإنسان حتى في نومه... أن تقتات من الحشائش وأوراق الشجر في عشك الإنساني هو عزَّةٌ وكرامة لك من الوقوف في طوابير لأخذ كرتونة فيها حزمة من المعكرونة مكتوبٌ عليها: المساعدات الإنسانية، فهو ذلٌّ وإهانة...

بدأ العفرينيون يدهسون بخطوات العودة على كل خرائط الهجرة القسرية، دون أن يتلقوا إشارة من أحد هنا أو هناك... العودة كانت ثورة عشق الإنسان لأرضه... ليلتئم شمل عشاق الأرض مرة أخرى. لا للحواجز التي بدأت بمنعهم من العودة إلى أحضان الزيتون...

كان حاجزٌ وأمامه حاجز... حاجز، وخلفه حاجز... حاجز وإلى جانبه حاجز... حاجز وضمنه حواجز... إلا أن موجة العودة بدأت رغم هوية الابتزاز لأغلب تلك الحواجز.

كانت الطرقات مفخخة... حدود القرى مفخخة... سواقي البساتين مفخخة... مزاريب الأبنية مفخخة... أباريق الشاي الفارغة مفخخة... المعالق

مفخخة... لكن كان لا بد من العودة، وتفكيك التفخيخ الديموغرافي لجبل الكُردِ من قِبَل من هم مفخخون من الحقد الأعمى حيال الكُرد والإنسانية. فبتر قدمٍ أو ساعدٍ أفضل من بتر جذور الإنسان من أرضه.

كانت العودة بالحافلات الخاصة والعامة بمثابة تهريب المخدرات، وإن مرروا بعضها فالدفع يكون بالدولار...!

امرأة بيدها اليمنى حقيبة كبيرة، وعلى ظهرها طفلتها ذات الخمسة أشهر، وخلفها ولداها، أوقفها الحاجز الأول، وسألوها بالكردية:

- إلى أين ذاهبة أنت؟

ردت عليهم:

- إلى لمسات يدي التي تركتها على باب بيتنا... إلى حيث دفَنتُ صرَّة أطفالي الثلاثة تحت دالية العنب التي في الجهة اليسرى من بيتنا.

قطب عنصر الحاجز جبينه، وقال لها:

- كيف تريدين العودة إلى بيتك وكل المنطقة محتلة من قِبل الدولة التركية ومرتزقتها الذين لم يتركوا من البيوت سوى الجدران؟!

ردّت عليه المرأة:

- تلك الجدران بنيناها بعرق جبيننا، فهي أفضل من تلك الخيمة التي تسلخ مني كل يوم شوقي وحنيني وارتباطي بسرّ وجودي. الاحتلال زائل عاجلا أم آجلا... أما الجراد فعودتنا هي مكافحتهم.

حاول الحاجز منعها، إلا أنها تابعت المسير وهي تقول لهم:

- هذا كان حالنا معكم حين خرجنا من مدينة عفرين، ونفس السلوك في عودتنا إليها. غريب أمركم. ما هذا السلوك يا أبناء جلدتي؟

أثار كلام المرأة غضبهم، فأمسك أحدهم بساعدها ليرجعها إلى حيث أتت، سحبت المرأة ساعدها بقوة، وقالت له بلهجة قاسية:

- ألا تخجل من نفسك، وأنت تمسك بساعدي، وتمنعني من العودة إلى عفرين، وأنت ابن عفرين؟ هل تعلم أنَّ زوجي استشهد في الأيام الأخيرة من مقاومة عفرين في جبهة راجو؟ إنه لم يترك ساحات الدفاع عن جبل الكُرد حتى استشهد.

من أنتم حتى تسلبوا مني حق العودة إلى ترابٍ سال عليه دماء أبنائنا وبناتنا ورجالنا دفاعًا عنه؟

صمتوا أمامها، فتابعت المرأة خطواتها نحو عشق الزيتون، ودماء الشهداء المقدسة بخطواتها المباركة.

وفي الحاجز التالي أوقفوها أيضًا، وقال أحد العناصر لها باللهجة الشاوية:

- لوين تِرَوحين؟

ردّت المرأة عليه، وبحزم:

- إلى حيث رائحة أمي وأبي... إلى حيث ولدتُ وسأدفن فيه آجلًا أو عاجلًا، هل لديكم مانع؟

قال العنصر:

- لا... لا... لا نريد منك سوى ثمن غداء. نحن هنا لنحميكم من الإرهابيين. فقط نريد منك ثمن غداء وكان الله في عونك.

تابعت المرأة سيرها دون أن ترد عليه، ولو بكلمة. بعد عدة خطوات صاح بها العنصر بلهجةٍ وقحة:

- ارجعي أيتها التافهة، لا ذهاب دون أن تدفعي الآن ثمن الغداء والعشاء أيضًا... ارجعي وإلا....

توقفت المرأة وقالت له:

- وإلا ماذا؟، يا من تدَّعون أنكم تحموننا من الإرهاب...؟! هيا قل ما ستفعل؟ أليس كلامك هذا إرهابا يا...؟

ثم تابعت مسيرها دون حتى أن تلتفت إلى الخلف. فقال ذلك العنصر لزملائه الآخرين:

- هذه الإرادة التي يمتلكونها ستفشل التخطيط للتغيير الديمغرافي في منطقتهم. لذلك علينا منعهم من العودة بكل الوسائل.

كان بين الحاجز الأول والثاني مسافة خمسين مترًا، وبين الحاجز الثاني والثالث الذي كان عناصره خليطًا من الحاجز الأول والثاني مسافة نصف ساعة مشيًا. وكانت تلك المسافة من الطريق فيها المئات من العائدين، وكلهم حتى الأطفال الَّذين كانوا في السابعة من عمرهم، يحملون الحقائب وبعضا من الحاجيات معهم.

أوقفهم عناصر الحاجز، وسألوهم:

- خيرًا إن شاء الله!... إلى أين أنتم ذاهبون؟

كان شيخو صديق خَلّو في مقدمة ذلك الحشد من العائدين، فقال لعناصر الحاجز:

- ألا تعلمون إلى أين نحن ذاهبون... أم أنكم تريدون أن نبقى حتى يأكل الصدأ مفاتيح بيوتنا في جيوب هذا التهجير القسري، ويَقتلنا الانتظار؟

قال له أحد عناصر الحاجز غاضبًا:

- أتذهبون إلى الإرهابيين، ولا تخشون على شرفكم وحياتكم؟! أتذهبون من أجل أوانيكم المنزلية، أو من أجل برادٍ أو غسالةٍ أو تلفاز؟ ألا تعلمون أن الجراد البشري نهبوا حتى الأحذية المهترئة؟

ردَّ عليه شيخو قائلًا:

- كفى استهزاءً...! نحن نعود كي نداوي جرح الزيتون... نعود إلى تلك الكُروم التي زرعها أجدادنا، ورجوم الحجارة التي جمعتها أيادي أجداد أجدادنا الأولين على تخوم الأراضي... نحن نعود إلى صدور جبالنا التي تحفظ تاريخ وجودنا، وإلى سهولنا المروية بعرق الفلاح العفريني الذي دمه وروحه من رائحة تراب جبل الكُردِ يا...!

أغضب كلام شيخو عناصر الحاجز، فمنعوا الناس من العودة، وقالوا لهم:

- إما أن تعودوا إلى حيث كنتم، أو ستبقون في هذه البراري. ممنوع الذهاب إلى عفرين.

دون أن يرد شيخو عليهم، انطلق، وقال للعائدين:

- هيا اتبعوني! فليفعلوا ما يريدونه.

تناول أحد العناصر سلاحه، وأفرغ مشطًا كاملًا من الطلقات على رؤوس العائدين في الهواء بغية ترهيبهم وعدم السماح لهم بالذهاب، إلا أنَّ العائدين لم يتوقفوا وسط بكاء الأطفال الذين أرعبهم صوت الطلقات وعويل بعض النساء.

كان ذلك اليوم من شهر أيار حارًّا، وكانت المسافة بين الحاجز الثالث وحاجز أصحاب اللحى الطويلة الّذين استباحوا جبل الكُردِ بلصوصيتهم على مرأى من العالم وبإشراف من الدولة التركية، سبعة كيلو مترات. وكان الطريق وعرًا جدًّا عبر منحدرات جبل ليلون.

كان العائدون منهم يرمون ما كان يحملونه معهم من المتاع، ويتركونه خلفهم في الطريق. ومنهم كان يتزحلق على الصخور، ويرتمي أرضًا... ومنهم من كان يساعد الآخر في حمل الأطفال الصغار... وكان منهم من يناله التعب، ويجلس إلى جانب صخرة، وهو يتنفس النسمات التي كانت تأتي من جهة الغرب، حاملة معها رائحة زهرة الزيتون والزعرور... ومنهم من كان يذرف الدموع وهو يرى بعض القرى من جبل الكُردِ... ومنهم من كان في أثناء المشي ينظر إلى مدينة عفرين، ويأخذ طاقته منها لمجابهة صعوبة الطريق ووعورته...

مع تمدد ظل الأشجار إلى جهة الشرق أكثر من قامة الشجر، وصل ذلك الحشد إلى أطراف قرية قرزيحل الواقعة في أسفل منحدرٍ من منحدرات جبل ليلون العنيد.

أوقفهم حاجز أصحاب اللحى الطويلة، وبدأوا بتفتيش العائدين فردًا فردًا، وإسماعهم كلاما لا يخلو من الإهانات والكراهية والحقد الأعمى للكُردِ.

سأل أحد أصحاب اللحى الطويلة شيخو:

- إلى أين أنت ذاهبٌ أيها الكهل الخرف؟!

ردَّ عليه شيخو دون تردد، وبصوتٍ ملؤه الحزم:

- إلى بلدتي التي تتألم من الّذين أصابهم خرف الإنسانية، لأداوي جراح الزيتون.

أراد صاحب اللحية الطويلة أن يضرب شيخو بأخمص البارودة، إلا أنَّ النساء بتجمعهن حول شيخو منعوه.

فقال مسلح آخر ذو لحية طويلة لزميله:

- اتركه! لقد أخذنا اسمه ومكان سكنه من بطاقته الشخصية، سيكون له حسابٌ عسير هناك فيما بعد.

ركب العائدون الحافلات التي كانت واقفة بالقرب من حاجز أصحاب اللحى الطويلة، ليذهبوا إلى مدينة عفرين. نادى سائق سيارة بيك آب مكشوفة: من يرد الذهاب إلى بلدة جنديرس يصعد إلى سيارتي.

امتلأت السيارة بالعائدين، وكان من بينهم شيخو وزوجته فيدان. قبل أن تنطلق السيارة قال شيخو لزوجته: سنبيت الليلة عند صديقي خَلّو، وفي الصباح نذهب إلى بلدتنا شيخ الحديد (شيّه).

انطلقت السيارة المكشوفة باتجاه مدينة عفرين، وشيخو واقفٌ على قدميه ليرى ماذا حدث للقرى والبلدات في جبل الكُردِ من بعد هجرتهم القسرية.

بدأ شيخو تارةً يتمتم، وتارةً أخرى يردد في نفسه بصمت: ما هذا الذي تراه عيناي؟! أيعقل أن تكون هذه مدينة عفرين التي كنت أعرفها؟!

أبنية مهدمة، وأخرى نصف مهدمة، ومنها سويت بالأرض... أبنية حزينةٌ على فراق أهلها، والأُخرى تبصق في وجه ساكنيها الغرباء... يا ألله، أيعقل هذه هي عفرين؟!

دخلت السيارة إلى المدينة من على الجسر القديم، أغمض كل الذين كانوا في السيارة أعينهم، وهم يتمتمون: لا تحزن يا رمز الحرية! يا كاوا الحداد! لنا موعد آخر لننصب تمثالك في كل ساحات كردستان.

كانت السيارة تمشي ببطء، وشيخو يتفحص كل شيء بعدسة عينيه، لكن بألمٍ وحرقة روح. فالوجوه غير الوجوه التي كانت تبتسم لهم المدينة... وجوهٌ كأنها من العصور الوسطى... وقامات تمشي وهي سوداء كأنها أشباح، فهي غير معروفة الوجوه، ولا تفاصيل للجسد... لكنها كانت تمشي...!!! أصواتٌ غريبة... ولغة غريبة، ونبرات عجيبة تصيح لبيع ما سرقوه في ليلة البارحة، أو التي قبلها...!!!

التفت شيخو إلى يمينه، ليته لم ير ما رأته عيناه! صيدلية تحولت إلى محل لبيع اللحم، وأحشاء الحيوانات المذبوحة على الرصيف، ورائحة كريهة تعم المكان!!! تدمع عيون شيخو وغيره من الركاب العائدين. تمتم شيخو: الثقافة أصل الحضارة. هؤلاء أشباه البشر جلبوا معهم كل نتانة ثقافتهم.

ثم التفت إلى يساره، ليته لم ير ما رأته عيناه! محل لدمى الأطفال تحول إلى محل لبيع الأسلحة!!!

ما إن خرجت السيارة من المدينة وهي متجهة إلى الغرب، حتى أخذ شيخو نفسًا عميقًا، وردد في نفسه: عذرًا يا عفرين...! أنت ضحية صفقات العاهرين في هذا العالم المنافق... لا تحزني! أبناء الشمس سيهزمون الظلام.

كانت السيارة سريعة وهي تتجه إلى بلدة جنديرس وشيخو يسمع أنين الأرض... ويرى جُرح الزيتون... وآهات السنابل... وصرخات التلال من بعيد. انهارت قوة الكهل العفريني مما رآه وسمعه، فجلس إلى جانب زوجته فيدان وهو يمسح دموعه بكفيه.

كل الركاب كانوا صامتين، لكن كان في رأس كل واحدٍ منهم أكثر من سؤال يحتاج إلى جواب... كان في قلب كل واحدٍ منهم أكثر من جُرح قد لا يندمل... كان على لسان كل واحدٍ منهم أكثر من قصيدة باكية؛ كلماتها من قواميس لا يعرفها سوى من كانت روحه مشبعة بجرح الأرض.

قبل أن يتمدد ظل الأشجار باتجاه الشرق بضعفٍ ونصف على طولها، أصبحت السيارة على مدخل بلدة جنديرس، نهض شيخو ووقف ليرى ماذا حصل لها من بعد مروره بها في آخر مرةٍ، عندما كان في طريق الهجرة القسرية.

ليته لم ير ما حصل للعاصمة الصغرى لأشجار الزيتون!!... بدخول السيارة إلى سوق البلدة، وبمجرد ما رأت عينه هول الكارثة وما حلَّ بها من دمار وحرق، كاد يغمى عليه. وبدأ يردد في نفسه: حيث يمرّ المغول والتتار يكون الحرق والدمار....

احتارت عيون شيخو والذين كانوا في السيارة إلى أي مكانٍ مدمَّرٍ ومحترق تنظر...!!! كانوا يرون أنفسهم غرباء بالمطلق من هذه الثقافة التدميرية للبشر والحجر والطبيعة التي حولت القرى والبلدات إلى بقايا من الدمار والهلاك.

قبل أن تتوقف السيارة التفت شيخو إلى الجهة الشمالية، لتقع عيناه على ثانوية البلدة التي تخرّج من على مقاعدها المئات من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد أطباء وصيادلة ومهندسين ومدرسين أكْفاء، وهي مدمرة ... أغمي عليه ووقع على زوجته. رشت زوجته قليلا من الماء على وجهه، ففتح شيخو عينه وهو مصفر الوجه ثم نهض وجلس دون أن ينظر إلى البلدة.

وقفت السيارة بالقرب من سوق البلدة، ونزل الّذين كانوا على متنها وسط خوفٍ ورعبٍ من كل ما تشاهده عيونهم. توجه شيخو وزوجته إلى بيت خَلّو من بين ركام الأبنية المتهدمة، وهم يشاهدون بعضا من أصحاب اللحى الطويلة وهم مدججون بالسلاح... أوقف أحدهم شيخو وزوجته وسألهما:

- من أنتما، وإلى أين أنتما ذاهبان؟

ردَّ عليه شيخو:

- نحن أهل البلدة، وذاهبان إلى بيتنا.

كان المسلح ابن ثقافته وقحًا، فقال لهما:

- أهل البلدة!!...

ثم ضحك بسخرية واستهزاء، وقال ثانيةً: أهل البلدة.

ردَّ عليه شيخو وهو يشير بيده إلى حقل لأشجار الزيتون الذي كان قريبًا من دار خَلّو:

- تلك الأشجار لا تقبل بوجود الغرباء.

وتابع سيره باتجاه دار صديقه خَلّو الذي بات قريبًا منهما. وهو يقول لزوجته فيدان:

- رحم الله جدِّي كان يقول لنا: الأرض التي تمرُّ منها خيول الترك لا تنبت فيها حتى الحشائش. أما هؤلاء المرتزقة أصحاب اللحى المزيفة عملهم اللصوصية والجريمة ليس إلا.

قبل أن تودع الشمس جبل الكُردِ، وتختفي خلف سلسلة جبال طوروس، وصل شيخو وزوجته فيدان إلى سور بيت خَلّو. نادى شيخو: خَلّووو... خَلّو...! لكن لم يردَّ عليه أحد.

نادت فيدان: أم فرهاااد... أُم فرهاد...!!! لكن كان الصمت هو الجواب.

بعد أن دخلا بهو الدار، تجمدا في مكانهما لما شاهدا الأبواب والنوافذ مخلوعة، وليست هناك سوى الجدران التي عليها آثار دخان أسود. بدأت عيونهما تفيض بالدموع. جلس شيخو أمام الباب بالقرب من شجرة الليمون الصغيرة التي كانت حزينة على فراق أهلها. ثم قطف منها ورقة وفركها بين كفيّه وشمها بعمق.

دخلت فيدان البيت بهدوء وحذر لترى ماذا حدث للبيت عن قرب. بعد دخولها بلحظات انفجر فيها لغم كان مزروعا فيه، قتلها مباشرة، وسوي كامل البيت بالأرض، وبقيت فيدان تحت أنقاضه. أما شيخو فقد أصابته بعض الكتل الإسمنتية التي تطايرت نتيجة انفجار ذلك اللغم، وأصيب بجروحٍ خفيفة في رأسه وكتفه الأيمن.

لم يبتعد شيخو عن المكان وهو ينادي بأعلى صوته: فيدااان... فيدااان...!!! لكن دون أن يسمع أي أنين أو حركة أو نداء استغاثة.

اجتمع بعض الجيران الذين عادوا إلى البلدة قبل أيام، وبعض المسلحين من أصحاب اللحى المزيفة في المكان. بدأ أهالي الحي بمحاولة إخراج جثة فيدان من تحت أنقاض بيت أم فرهاد وخَلّو.

بينما كان الأهالي يحاولون إخراج الجثة بالأدوات اليدوية البدائية، سمعوا صوت امرأة من خارج سور البيت وهي تنادي وتقول: اللعنة... كل اللعنة عليكم أيها الأشرار... مباشرة عرف شيخو إنه صوت أُم فرهاد زوجة صديقه خَلّو، ففاضت عيناه أكثر بالدموع. فترك المكان وتوجه إلى أُم فرهاد وهو يقول لها: أين كنتم... ماذا حدث لكم... أين خَلّو...؟

عندما شاهدت أُم فرهاد الدم يسيل من رأس شيخو، سألته: ما بك يا شيخو...؟ ماذا حدث...؟ ماذا تفعلون هنا...؟ أين فيدان...؟ فوقف كل منهما في مكانه صامتًا ومندهشًا من أسئلة الآخر...!!!

بينما كان كل من أُم فرهاد وشيخو صامتين، صاح أحد الذين كانوا يعملون لإخراج جثة فيدان من تحت الأنقاض هذه يدها... هذه يدها... هيا ساعدوني لنخرجها.

ركضت أُم فرهاد إلى المكان وهي تبكي بأعلى صوتها وتقول: يَد من... يَد مَنْ؟ حينها كان شيخو واقفًا خلف أُم فرهاد، فقال لها: إنها يد فيدان يا أُم فرهاد... إنها فيدان...!

اقترب مسلحان من أصحاب اللحى المزيفة من مكان جثة فيدان، وقال أحدهما: ابتعدوا لنخرج الجثة بأمان. حاولت أم فرهاد أن تتحاشاهما، ولكن حين وقعت عيناها عليهما نظرت إليهما بازدراء، بصقت في وجههما، وقالت لهما: ابتعدا عن المكان أيها القتلة، لن نترككما تدنسان جثتها الطاهرة بأياديكما القذرة.

أراد أحدهما أن يمدَّ يده إلى أُم فرهاد ليضربها، إلا أنَّ شيخو أمسك بيده، وطرحه أرضًا. وأراد أن يضرب بحجرة من بقايا البيت خلف رأسه ليقتله، إلا أن بقية المسلحين اجتمعوا عليه، وخلصوه من بين يديه، وبدأوا يشتمون الحاضرين بكلماتٍ نابعة من حقدهم وعدائهم للكُرد.

أخرج الحاضرون من أهل الحي جثة فيدان المتقطعة من تحت أنقاض بيت أُم فرهاد، ووضعوها بين بطانية، وأخذوها إلى بيت قريبٍ من بيت أُم فرهاد وسط أجواءٍ من الحزن والألم والحيرة من أمر ما يحدث لسكان البلدة من أفعال شنيعة من قِبل أصحاب اللحى المزيفة وبإشراف من الدولة التركية.

سألت أم فرهاد شيخو: أين تريد دفن جثة فيدان؟

كان شيخو صامتًا وهو يفكر بنفس الموضع، لكن الذهاب إلى بلدته كان غير ممكن حيث كان التجول ممنوعا من المساء حتى الساعة الثامنة صباحًا، وأيضًا لم تكن هناك حافلات. لذلك بقي صامتًا، ولم يجب على سؤال أم فرهاد.

أدركت أُم فرهاد الوضع الصعب لشيخو، فقالت له: التراب ترابنا، وكذلك الأرض، سواءً في شيَّه أو جنديرس أو راجو أو بلبل، وكذلك الأمر شرّان ومعبطلي وعفرين، وأيَّة قريةٍ من قرى جبل الكُرد هي أرض كردستانية. ماذا تقول يا شيخو؟

هزَّ شيخو برأسه وهو صامت ومجموعة من النساء والرجال الذين عادوا إلى الحي كانوا في انتظار جوابه. حين هزَّ شيخو برأسه، فهموا أن

شيخو وافق أُم فرهاد رأيها. تقدم أحد الحاضرين من أُم فرهاد وسألها: أين نجهز القبر يا أُم فرهاد؟ أشارت إليهم بأن يجهزوه بالقرب من قبر أُم رنكين وأولادها.

بدأ الرجال والنساء معًا في تجهيز القبر، وهم في صراعٍ مع الزمن، لكي يدفنوها قبل توقيت حظر التجوّل في البلدة. وفي البيت كانت أُم فرهاد مع بعض النسوة يقمن بواجبات الدفن.

كان شيخو صامتًا، لم يكن يفكر في مستلزمات الدفن، ولا بمجلس العزاء لزوجته فيدان، ولم يكن يخاف الموت، بل كان يفكر كيف سينتقم لجرح الأرض والزيتون. وأحيانًا كان يردد في نفسه: لماذا تركتني وحيدًا في جحيم الحياة يا فيدان؟ لا تخافي عليَّ من الحياة يا فيدان!

تمَّ الانتهاء من الدفن قبل بدء توقيت حظر التجوال بربع ساعة من الزمن، تقدم أحد المسلحين ذو اللحية المزيفة ليقوم بالتلقين. وضع شيخو يده على صدر ذلك المسلح، وقال له: ابتعد عن القبر، لا نريد أن يلقنها من قتلوها.

وقف شيخو قبالة شاهد القبر، وقرأ عليها التلقين صامتًا. ثم قال: الرحمة على شهداء جبل الكُردِ جميعًا، ونسأل الله أن يخذل الظالمين والقتلة والمنافقين، وكل من كانت يده ملطخةً بدماء الأبرياء في كل بقاع الأرض.

ثم وضع غصن الزيتون الذي كان في يده في أثناء التلقين على القبر وقال:

- لترقد روحك بسلام يا فيدان!

قال أحد المسلحين وهو يمرر أصابعه النتنة من بين لحيته المغبرة من غبار الأبنية المتهدمة:

- حتى دعاؤكم غير دعاء المسلمين.

لم يرد عليه أحد من الحاضرين، أداروا لهم ظهورهم، وانصرفوا إلى بيوتهم، وكل واحدٍ منهم يلعن من تسبب في الكارثة الدموية لجبل الكُرد.

لم يكن في البلدة تيار كهربائي ولا ماء ولا حتى خبز ولا غيره... كانت البلدة كغيرها من بلدات وقرى جبل الكُرد تخلو من بديهيات الحياة... كانت حجارتها تبصق في الوجوه النتنة للغرباء من اللصوص وأسيادهم...

في بيت جارة أُم فرهاد خيَّم الصمت دون أن يتكلم أحدٌ من الحاضرين. طُرق الباب في تلك العتمة، قام صاحب البيت وفتح الباب، وإذ بثلاثة مسلحين واقفين. قبل أن يتكلم صاحب البيت قال له أحدهم:

- أين هو زوج المرأة التي انفجر بها اللغم، هل هو موجود هنا؟

قال صاحب البيت:

- ماذا تريدون منه؟

ردَّ عليه المسلح:

- هذا ليس شأنك، عليك أن تجيب فقط أيها الملحد!

عندما تأخر صاحب البيت قامت أُم فرهاد، وذهبت لتعرف ماذا هناك. عندما وصلت، ورأت المسلحين، سألتهم:

- ماذا تريدون أيضًا...؟ هل تريدون تفخيخ البيت أم أخذنا للتحقيق في محاكمكم المزيفة؟

قال أحد المسلحين بلهجة قاسية وحاقدة:

- نريد أن نأخذ زوج المرأة التي انفجر بها اللغم. وإلا سندخل البيت رغمًا عنكم، ونصحبه للتحقيق.

ردَّت عليه أُم فرهاد:

- لن تدخلوا البيت، ولن تأخذوا شيخو؛ ولو على جثثنا جميعًا. أعرف أنكم دون إحساس وشعور وإنسانية.

ثم أغلقت الباب في وجوههم.

عندما رجعت أُم فرهاد سألوها: ما هناك؟ قالت: لا شيء، ثم سألت مباشرةً: ماذا حدث لفيدان يا شيخو؟

بعد أن تحدث شيخو باختصار لأُم فرهاد عما حدث لزوجته وهي داخل البيت. سألها أين هو صديقي خَلّو يا أُم فرهاد؟

فاضت عيون أُم فرهاد بالدموع، وبقيت صامتة. تيقن شيخو وأهل البيت أن خَلّو أصابه مكروه من بعد أن ودّعه يوم هجرته القسرية، فقال: يا أُم فرهاد! أين هو صديقي خَلّو؟ أخشى أن يكون قد أصابه مكروه، أو لا سمح الله قد!!...

مسحت أُم فرهاد دموعها، وبدأت تسرد القصة من بداية مداهمة بيتهم إلى أن وصلت عند دخولهم الثلاثة في الغرفة رقم /٧/ في المعتقل من بعد التحقيق معهم بالتفصيل. كان الجميع يذرفون الدموع مع أُم فرهاد، وهي تروي ما جرى لهم.

قال شيخو:

- وفيما بعد ماذا حدث... وأين خَلّو وابن أخيه شيركو يا أُم فرهاد ... أين هما؟!

قالت أُم فرهاد:

- بعد أن بقينا في تلك الغرفة لمدة خمسة عشر يومًا، بدأ جسم شيركو يتقيح من ضربات الجَلدِ. وفي تلك الغرفة المظلمة كانوا كل يوم يرمون من طاقة الباب ثلاث حبات من البطاطا ورغيفين من الخبز وقنينة ماء واحدة. بدأ جسد خلّو يضعف يومًا بعد يوم؛ لأنه كان يرفض أن يأكل من طعامهم، فكنت أجبره أحيانًا على أن يأكل، وكذلك الحال بالنسبة لشيركو.

بعد أن قضينا خمسة عشر يومًا في تلك الغرفة، في الليلة السادسة عشرة فُتِح الباب، فدخل ثلاثة مسلحين، وأخذونا إلى نفس الغرفة التي تم فيها التحقيق معنا للمرة الأولى. كان خلف الطاولة شخص حليق الذقن والشارب، وإلى جانبه نفس الشخص الذي حقق معنا، وكان اسمه الشيخ حمزة.

كان حليق الذقن والشارب يتقن العربية، نظر إلى خَلّو نظرة حقدٍ، وقال له:

- تريدون دولة. أليس كذلك يا أيها الكهل الخرف؟!

ثم قال الشيخ حمزة المحقق لحليق الذقن والشارب:

- نعم يا سيدي! هؤلاء الملاحدة يريدون تأسيس دولة لهم... إنهم أنصار الديمقراطية وهم علمانيون يحاربون الدين! هؤلاء تجب إبادتهم.

لم يتكلم خَلّو، بل كان ينظر إليهما نظرة أسدٍ جريح يريد أن يتعافى لينتقم مِمَن جرحه غدرًا.

تابع حليق الذقن والشارب أسئلته وقال:

- ألم أسألك أيها الإرهابي العجوز، لماذا لم تجبني؟!

لكن خلّو بقي صامتًا، ولم يرف له جفنٌ، وهو ينظر إليهما النظرة نفسها.

أثار صمت خَلّو غضب حليق الذقن والشارب، وكذلك الشيخ حمزة المحقق. فقام حليق الذقن والشارب من على كرسيه وقال الشيخ:

- ماذا تريد أن أفعل به يا سيدي؟ فأنا على أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامرك.

تقدم خَلّو خطوتين إلى الطاولة، وبصق في وجههما، وقال:

- الموت بكرامة أفضل من حياة الذُّلِّ.

وبصق عليهما ثانيةً، وقال لهما:

- الأديان والإنسانية والكرامة بُرَءاءُ منك ومن أمثالك أيها الـ... وقبل أن يُكمل جملته أمسك بصدره من الطرف الأيسر، ونظر إليَّ، ثم سقط أرضًا، وفارق الحياة. رميت بنفسي عليه وأنا أهزُّه، وأبكي وأناديهِ، لكن دون جدوى.

توفي صديقك خَلّو غيظًا من الكلام الذي سمعه يا شيخو... غيظًا! على حين كنت في تلك الحالة.

خرج حليق الذقن والشارب ومعه الشيخ من الغرفة، وجاء عددٌ من المسلحين، وأخذوا شيركو دون أن أنتبه إليهم.

لم تمض إلا دقائق وأنا أبكي على جثة خَلّو، وأشتم من كان السبب في موته، سمعت صوت طلقات الرصاص في ساحة ذلك المعتقل. حينها نظرت حولي فلم أجد شيركو.

تركت جثة خَلّو، وخرجت من الغرفة، وإذ بهم قد أعدموا بشيركو في تلك الساحة، وهو بين بركة من الدماء. ركضت إليه، لكن المسلحين أمسكوا بي وأخذوني إلى الغرفة رقم /٧/. الرحمة على شهدائنا وكل شهداء الحرية والإنسانية والحياة والكرامة وعلى فيدان. والحسرة الأخيرة يا شيخو التي ستبقى تلازمني بقية حياتي أنني لا أعرف في أيِّ مكانٍ دفنوهما يا شيخو!

بعد أن ساد الصمت والجميع يذرفون الدموع على ما حدث لخَلّو وابن أخيه شيركو والوحشية التي تمارس بحق كُرد عفرين- أخذ شيخو نفسًا عميقًا، ثم مسح دموعه بطرف قميصه، وسأل أم فرهاد بلهجة باكية:

- كيف أفرجوا عنك؟، وكيف وصلت إلى هنا يا أُم فرهاد؟

روت أُم فرهاد الفصل الثالث من قصة جرحها العميق من بعد ما حصل لزوجها خَلّو وشيركو للحاضرين، وكيف أنها واجهت كل ممارساتهم اللا إنسانية خلال فترة بقائها لديهم. ثم قالت:

- كما يبدو سألتحق بخَلّو وشيركو وغيرهم من الشهداء قريبًا.

وقبل أن تضع أُم فرهاد يدها اليمنى على الطرف الأيسر من صدرها، وتسقط على ظهرها لتفارق الحياة بنوبة قلبية. قالت:

- أبلغوا رسالتي إلى الكُردِ: لا أصدقاء للكُرد سوى الكُرد. كن كرديًّا كما تشاء، لكن لا تطعن أخاك الكردي كما تشاء، فكلنا أبناء روايةٍ حروفها الألم... الفرقة والتشتت أصل ضعفنا... يكفي أن نباع ونُشترى من بين الشعوب كقطعان بشرية، ففي الحرب الابتسامة نوع آخر من القتال الهادئ.

أبلغوا رسالتي إلى بعض الكُرد: العيش في خيمة من أغصان الزيتون عزة وكرامة وشرف، أفضل من تلك الفنادق ذات خمس نجوم.

أبلغوا رسالتي إلى أمهات كل الشهداء في العالم...

يرحل الشهيد مبتسمًا... فيُدفن الموت بعيدًا عنه ذليلًا... على أعين الشهداء رسائل العزة والشموخ والكرامة... وعلى جبين القتلة أوسمة العار والخذلان... مهما كثرت جحافل أهل الظلام... يبقَ النصر في النهاية حليف أبناء الشمس.

بعد أن قام شيخو وأهل الحي العائدون بدفن أُم فرهاد في دارها بالقرب من شجرة الليمون الصغيرة التي أصبحت أوراقها صفراء اللون من بعد فراق أهلها لها- مرَّ شيخو على قبر فيدان، ووقف إلى جانب القبر، وردد في نفسه وهو يقول لفيدان:

- عهدًا سأزور قبرك كل أسبوع، وأجدد غصن الزيتون كل مرة. وعهدًا لن أهمل أشجار الزيتون والورود التي زرعتها بيديك في دارنا التي عشنا فيها عمرًا جميلًا من جمال روحك يا فيدان!

قبل أن يغادر شيخو المكان، ذهب ثانيةً إلى دار خَلّو ووقف على قبر أُم فرهاد، ووقف بكل خشوع عند شاهد قبرها، وقال:

- سامحيني يا أُم فرهاد! لأنني لم أكن أعرف أنه سيحدث لكم بعد أن هجّرنا من البلدة، ولم آخذ بكلام صديقي خَلّو الوفي للأرض وشجرة الزيتون. عهدًا سأُقاوم المحتلين بكل ما أستطيع. وعهدًا سأزور داركم كل أسبوع لأسقي شجرة الليمون الصغيرة التي ستلف جذورها جسدك الطاهر. وعهدًا سأُحاول البحث عن مكان دفن صديقي خَلّو، وإذا تمكنت من معرفة مكان قبره سآتي برفاته، وسأدفنه إلى جانبك.

ثم غادر شيخو دار صديقه خَلّو ليتوجه إلى بلدته شيّه. بينما يحاول شيخو الوصول إلى الطريق الذي يصل بلدة جنديرس ببلدة شيّه، انفجر على بُعد مئة مترٍ منه لغمٌ أرضي في دراجة نارية وعلى متنها مسلحان من أصحاب اللحى الطويلة المزيفة. لكن شيخو لم يصب بأذى. فتابع السير إلى أن وصل إلى الطريق.

بينما كان شيخو واقفًا على الطريق، كانت تمرُّ من جنبه كل ساعةٍ تقريبًا سيارة لأصحاب اللحى الطويلة وهي محملة بالأشياء المسروقة من بلدة جنديرس والقرى المحيطة بها. وبالقرب من الطريق كان بيتٌ وأمامه سيارة بيك آب كبيرة، وكان أصحاب اللحى الطويلة يسرقون أثاث البيت. ولم تمض دقائق وإذ بسيارة أُخرى وقفت أمام البيت نفسه، ونزلت منها مجموعة لصوص من أصحاب اللحى الطويلة.

كان شيخو يراقب الطريق لعلَّ سيارة تأتي، أو حتى دراجة نارية ليركبها، ويذهب إلى شيّه، وفي الوقت نفسه كان يراقب عملية السرقة من ذلك البيت. لم تمض دقائق وإذا بصوت طلقات تُسمع داخل البيت الذي تتم سرقته. ثم خرجت مجموعة اللصوص التي أتت إلى البيت، وبدأت بتنزيل ما كان في السيارة الأولى التابعة للمجموعة الأولى، وتحميله للسيارة التابعة للمجموعة الثانية.

قبل أن ينتهوا من سرقة كامل أثاث البيت إذ بسيارة ثالثة تتوجه بسرعة إلى البيت نفسه. وشيخو من على الطريق يراقب مشهد اللصوصية، وهو يردد في نفسه: إنهم أُناسٌ خرجوا من رحم اللصوصية، ويدعون أنهم ثوارٌ وجنود الله على الأرض...!!

بعد إطلاق النار من أسلحة اللصوص للمرة الثانية في البيت نفسه، خرجت المجموعة الثالثة من البيت، وبدأت بتحميل المسروقات على سيارتهم، ومن ثم انطلقت السيارة باتجاه الغرب من بين أشجار الزيتون.

بعد أن شاهد شيخو كل عملية اللصوصية، وقفت سيارة جيب حديثة بالقرب منه، وفيها شخصان بلباس مدني، وقال السائق:

- إلى أين ذاهبٌ أنت يا أبو الشروال ؟!

ردَّ شيخو عليه:

- إلى بلدة شيّه.

قال السائق:

- هيا اركب يا أبو الشروال الأسود! نحن ذاهبون إلى شيّه.

صعد شيخو السيارة، وجلس في الكرسي الخلفي بهدوء، وقال لهما:

- بارك الله فيكما.

ردَّ عليه الشخص الذي كان إلى جانب السائق:

- هلا يا أبو الشروال الأسود!

ثم قال له:

- أنت مسلم أم كردي؟!

بقي شيخو صامتًا، لكنه ردد في نفسه: لقد أخطأتُ عندما ركبت مع هؤلاء المجردين من الإنسانية.

ثم بادر السائق قائلًا لشيخو:

- كما يبدو أنك أطرش. ألم تسمع السؤال؟!! أنت كردي أم مسلم؟

بدأت ثورة الغضب تجتاح نفس شيخو، ثم أجابهما بسؤال:

- هل أنتما عربٌ أم مسلمون؟

ضحك السائق ضحكة طويلة ثم قال:

- نحن عرب ومسلمون. لكن سؤالك تافه مثلك يا أبو الشروال!.

وضحك الشخص الذي كان بجانب السائق أيضًا ضحكة طويلة ثم قال بلهجة عامية:

- كما يبدو (إنو أبو الشروال بدو كم رفسة على خلفيته حتى يعرف يجاوب).

ظل شيخو صامتًا، لكن ثورة غضبه بدأت تصعد أَوجَها. وحينها كانت السيارة تسير بسرعة وهي تقترب من موقع "طريق الجمال - دفا يول".

عندما كان الشخص الذي بجانب السائق يضحك، لاحظ شيخو وجود بارودة خلف كرسي السائق، وفيها مخزنُ للطلقات. لكنه لم يعرف إذا كان المخزن فارغًا أم أنه مليء بالطلقات.

منذ أيام شبابه كان شيخو صيادًا ماهرًا، ولم يذهب إلى مزارع الزيتون إلا ومعه بارودة الصيد التي ورثها من أبيه. وكان يتقن الرمي بالبارودة الروسية أيضًا.

عندما وصلت السيارة إلى أول منطقة "دفا يول"، أوقفوا شاحنة فيها شخصان وهي محملة بمسروقاتٍ مختلفة من زيتٍ وتشكيلة من الأدوات المنزلية. سألهما سائق سيارة الجيب:

- إلى أين تأخذون هذه الغنائم يا مجاهدين؟

ردّ عليه سائق الشاحنة:

- إلى قائد الكتيبة المرابط في الجبهة الجنوبية.

ضحك سائق سيارة الجيب، وقال لهما:

- إنها غنائم لها قيمتها، بارك الله فيكم... تيسروا.

ثم التفت إلى شيخو، وقال له:

- ها قد حررناكم من الإرهابيين، ماذا تريدون بعد يا أبو الشروال؟!

ثم انطلقت السيارة.

مدَّ شيخو يده إلى البارودة التي كانت خلف كرسي السائق، ووضعها إلى جانبه دون أن ينتبها له، وبقي صامتًا وهو ينظر إلى أشجار الزيتون الممتدة على طرفي الطريق. في المنعطف الأول من طريق دفا يول، همس الشخص الذي كان بجانب السائق في أُذن السائق، ثم ضحك الاثنان بصوت عالٍ، وقال السائق لشيخو:

- يقال إنَّ: "الكردي مخّه سميك"، ما رأيك يا أبو الشروال؟

وضع شيخو يده اليمنى على البارودة، وقال دون ترددٍ أو خوف:

- كفاكما استهتارًا يا أهل الغنائم! هذا الشروال له ما له من قيمة معنوية، إنه رمزٌ يفتخر به كل كردي. أما بالنسبة لأسئلتكم يا من تسمون أنفسكم بمجاهدين!! أنا إنسانٌ، ثم كرديٌّ، ثم مؤمن. فأنا إنسان لأنني أحترم الإنسان من خلال إنسانيته سواءً كان كرديًّا أم عربيًّا... أوروبيًّا أم أفريقيًّا. فأنا كردي، وأفتخر بكرديتي، دون أن أعتدي، أو أُهين إنسانًا من قومية أخرى، وبدون وجه حق.

وأنا مؤمنٌ، ولا فرق عندي بين المسلم والمسيحي واليهودي والأيزيدي ومن أيّ عقيدة كانت. أما الّذين يسفكون ويهدرون دم الإنسان بمجرد أنهم على اختلافٍ وخلافٍ معهم في العرق والديانة، وينهبون الناس باسم الغنائم، فحكمهم عند الله واضحٌ، ولا يحتاج التفسير والتحريف. لم يسجل التاريخ بأن الكُرد كانوا يومًا إرهابيين، ولن يكونوا.

أراد السائق أن يسكته عن الكلام بنبرة من التهديد، إلا أنَّ الشخص الذي كان بجانبه قال له:

- دع أبو الشروال يتكلم.

إلا أن شيخو أنهى كلامه وهو يراقبهما بحذر.

سأله الشخص الذي كان بجانب السائق ثانيةً:

- وماذا تقول عن تحريرنا للمنطقة من الانفصاليين؟

ردَّ عليه شيخو بكامل قناعته:

- التحرير...!!! كيف يكون الغزو والاحتلال تحريرًا؟ متى كانت سرقة البيوت وممتلكات الناس بعد تهجيرهم قسرًا تحريرًا؟ أنتم أتيتم لتحرروا المنطقة من رونقها وجمالها وحضارتها... من فلكلور أهلها، وحتى من إنسانيتها. وكل هذا خلاف للأديان والإنسانية.

أثار كلام شيخو غضب السائق فأوقف السيارة في المنعطف الثاني من طريق دفا يول، وقال لشيخو:

- هيا انزل من السيارة أيها الملحد! يا أبو الإنسانية! هيا أيها الكردي! أنتم لا تستحقون الحياة! هيا ترجل من سيارتنا قبل أن أفرغ في رأسك كامل طلقات المسدس.

نزل شيخو من السيارة، لكن لم يكن لديه مجال ليأخذ معه البارودة. وقف على الطريق وهو يراقب حركتهما قبل أن تنطلق السيارة. حاول السائق أن يلتقط مسدسه ويطلق الرصاص على شيخو، إلا أن الشخص الآخر منعه. انطلقت السيارة بسرعة، ومشى شيخو باتجاه قرية مروانية.

بينما هو يمشي والسيارات المحملة بالمسروقات منها تتجه نحو الشرق، وأُخرى باتجاه الغرب. فجأةً وقفت سيارة بيك آب صغيرة بالقرب منه، وقال السائق:

- إلى أين يا عم شيخو؟

كان ريزان ابن بلدته شيّه. ركب شيخو إلى جانبه وتحركت السيارة.

سأل شيخو:

- من أين آتٍ أنت يا ريزان؟

قبل أن يجيب ريزان على سؤاله، وصلا إلى حاجزٍ لأصحاب اللحى الطويلة الذين أوقفوا السيارة، وبدأوا بتفتيشها. وأخذوا شيخو وريزان إلى الدار التي استولوا عليها بالقرب من الحاجز ليحققوا معهما.

كانت في إحدى غُرف البيت مجموعة من المسلحين، سأل أحدهم شيخو:

- ما هذا الذي تلبسه يا ختيار؟!

ردَّ عليه شيخو:

- إنه شروالٌ عفريني.

قال مسلح آخر وبلهجة من السخرية والاستهزاء:

- هؤلاء حتى لباسهم لا يشبه لباسنا، يجب أن نحررهم من هذه الألبسة.

ثم ضحك ضحكة طويلة، وضحك معه بقية المسلحين.

كان شيخو ينظر إليهم وهو يردد في نفسه: هؤلاء اللصوص يجب أن تتم مكافحتهم وتخليص المنطقة من رجسهم. ثم قال لهم بصوتٍ عالٍ:

- الفكر المخصي لا ينجب الحياة.

تفاجأ المسلحون بكلام شيخو، ولم يفهموا معناه. فسأله أحدهم:

- ماذا تقصد بكلامك يا أبو الشروال؟!

قال له شيخو:

- ماذا تريدون منَّا؟ دعونا نذهب إلى بيوتنا.

قهقه أحد المسلحين وقال:

- بيوتكم...!! متى كانت لديكم بيوت وأراض في هذه المنطقة؟! كل شيء أصبح غنيمة للمجاهدين المسلمين حتى سيارة البيك آب التي كانت معكما.

قال له ريزان:

- ماذا تقصد؟

ردَّ مسلح آخر على ريزان بلهجة عامية:

- (شو يعني مخّك سميك)؟ اخرجا من هنا واذهبا دون أن تلتفتا إلى الخلف. وإلا اقرأ أنت وأبو الشروال الفاتحة على روحيكما.

خرج شيخو وريزان من الغرفة وهما يرتشفان من كأس صمتهما، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. عندما يمتلئ كأس الزمن بالصمت والآلام، تصبح الحياة كصحراء ملتهبة.

بدا الطريق مخمورًا من خطواتهما المثقلة بأكثر من وجعٍ وهما يتجهان إلى بلدتهم شيّه التي لم يعرفا ماذا حدث لها من بعد التهجير القسري لأهلها قبل أكثر من شهرين.

عندما يتجه المرء إلى عشه ومكان ذكرياته وإلى حيث ميلاد عشقه للأرض والحياة لا ينال منه التعب ولا حتى المفاجآت المؤلمة والدامية. كانت المسافة بين قرية مروانية وبلدة شيّه طويلة، لكن روح شيخو كانت تسمع نداءات أشجار الزيتون، لذلك كان يمشي مشية أُم لتصل إلى وليدها الرضيع من بعد فراقٍ طال لساعات.

على طرفي الطريق كانت أشجار الزيتون حزينة على فراق أهلها لها، ومنها ما كانت جريحة دون أن يداويها أحد. كانت الرياح مقهورة تعصف على صدر الجبال... وكل شيء كان يملي على المكان النداءاتٍ لعودة العشاق إلى أحضان القرى والبلدات والمزارع التي فارقتها رائحة الكرديّ التي تنعش ذرات التراب.

كلما كان شيخو يقترب من بلدته شيّه، كانت تنعش روحه ذكرياته المنثورة بين مزارع الزيتون الممتدة على طول سهلها الخصب وعرضه. وكانت عيناه تمتلئان بكل الفصول، وكانت رقصات أغصان الزيتون الفرحة بمجيء بعض الأهالي تمسح صدأ الأيام القاسية التي أمضاها شيخو بعيدًا عن ذلك المكان.

خرج شيخو عن الطريق، ووقف تحت شجرة الزيتون وكأنه واقفٌ أمام معبدِ ميدي بكل خشوع، ثم ركع، وبدأ يُقبّل التراب أكثر من مرةٍ، ومن ثم بدأ بتقبيل جذع تلك الشجرة ثلاث مرات. وقال: حتى في موته يعشق

العفريني أن يدفن بالقرب من شجرة الزيتون يا ريزان! نعم يا ريزان! العفريني وشجرة الزيتون آيةٌ من آيات الحياة، لا عفريني يستطيع العيش بدون أشجار الزيتون، ولا هي تستطيع أن تُعمّر كثيرًا دون العفريني.

هل تعلم يا ريزان! عندما كنت رضيعًا كانت أمي تعلق الأرجوحة على غصن شجرة الزيتون، وتقطف مع أبي الزيتون من الصباح حتى المساء. وعندما كانت أمي تتأخر في إرضاعي، كانت رقصات أغصان الشجرة تنسيني الجوع. وعندما أصبحتُ شابًّا يافعًا كنت أصاحب أبي إلى حقل الزيتون لنقتل الديدان التي كانت تنخر في جذوعها وأغصانها. نعم يا ريزان! علينا أن نكافح الديدان والحشرات التي بدأت تنخر في حياتنا.

على مدخل بلدة شيّه كان هناك حاجزٌ عليه وجوه غرباء عن المنطقة ولحيتهم طويلة، ومنهم من كان حافي القدمين وكأنهم من العصور الغابرة. أوقف عناصر الحاجز شيخو وريزان وسأل أحد المسلحين:

- من أنتما؟ وإلى أين أنتما ذاهبان؟

ردَّ عليه شيخو:

- نحن أهل البلدة، وعائدان إلى بيتنا.

قال المسلح:

- تعني أنكم كنتما من سكان البلدة قبل تحريرها، أليس كذلك؟

كان كلام المسلح قاسيًا على شيخو وريزان. لذلك ردَّ شيخو عليه بقوله:

- أقول لك: نحن أهل البلدة.

ثم ردد في نفسه:

- شكلكما لا يليق حتى أن تقفا على حدود جنتنا.

بعد أخذٍ وردّ بين شيخو وبعض مسلحي الحاجز، دخل شيخو وريزان بلدتهما التي كانت مشتاقة حتى إلى أنفاسهما وخطواتهما.

كان وجوه الأشخاص الَّذين يمشون في شوارع وأزقة البلدة غير الوجوه التي تعودت عيون شيخو على مشاهدتها... والزّي الذي كانوا يلبسونه لم يكن له علاقة بزّي أهل البلدة والمنطقة... كانت بعض البيوت حتى جدرانها الخارجية حزينة، وهي تئنّ من الشعارات التي كتبت عليها بيد الغرباء... وبعض البيوت كانت متشحة بالأقمشة السوداء التي تعادي لوني الأبيض والأخضر...

عندما وصل شيخو إلى ساحة النبعة، وقف مذهولًا مما رآه من مظاهر غريبة، والناس الَّذين كانوا فيها أغلبهم مسلحون ذوو لحى طويلة وثيابهم قذرة... أشكالهم غريبة... لهجتهم غريبة... حركاتهم... نظراتهم، وكل شيء فيهم غريب. بعض المحلات مفتوحة، لكن ليس هناك وجودٌ لأصحابها.

بينما كان شيخو يتفحص كل شيء في الساحة وهو واقف، قال له ريزان:

- ما بكَ يا عم شيخو؟ أنا ذاهب إلى بيتنا.

نظر إليه شيخو، وقال بصوتٍ حزين:

- مع السلامة يا ريزان! انتبه لنفسك، وكن حذرًا.

ثم تحرّك شيخو بخطوات ثقيلةٍ من بين تلك المظاهر الغريبة، متجهًا نحو بيته الذي كان في الحي الشمالي الشرقي من البلدة.

كلما كان شيخو يقترب من بيته، كانت دقات قلبه تزداد قوة، وكان يردد في نفسه: ليت فيدان كانت معي... لكن سأبقى أسقي الورود التي زرعتها بيديها كل صباح. ثم كان يتمتم: كيف سيستقبلني البيت وشجرة الليمون ودالية العنب دون فيدان التي كانت تعتني بهم كأبنائها؟!

أخذ نفسًا عميقًا وردد في نفسه: الله يرحمك يا فيدان! وبدأت الدموع تسيل على خدّيه.

عندما اقترب شيخو من بيته، وعلى مسافة مئة مترٍ تقريبًا، شاهد بيت ابن أخيه مسكونا بأناس غرباء. أراد أن يذهب إلى هناك، لكنه أجّل الأمر إلى يومٍ آخر. وعندما مرَّ من أمام دار ابن عم زوجته فيدان، صاح طفلٌ كان أمام الدار: أمي... أمي! رجلٌ غريب يمر من هنا.

كان كلام ذلك الطفل كصعقة كهربائية على قلب شيخو. وقف وأسند ظهره إلى جدار بيتٍ قريب وهو ينظر إلى الطفل وهو يردد في نفسه: غريبٌ ينادي أُمه أن أهل البلد غرباء... أليس هذا من غرائب العصر...؟!!

بينما كان شيخو واقفًا وهو يراقب الطفل وباب الدار صاح الطفل ثانيةً: أُمي... أُمي إنه واقفٌ وهو ينظر إليَّ!

حينها خرجت امرأة وهي لابسةٌ خمارًا أسود كلون القطط السوداء التي تخاف منها الأطفال، والكبار أحيانًا، وما إن شاهدت شيخو حتى أمسكت بيد الطفل وأدخلته إلى الدار.

لا شك أنه مهما كانت الانتصارات في الحروب لا تساوي خدشًا ولو برأس إبرة يصيب طفلًا بأذى، أو استيقاظه من النوم بصوت طلقة نارية من بارودة مقاتل، إلا أن كلام ذلك الطفل ترك أثرًا عميقًا في نفس شيخو.

لذلك بقي في مكانه صامتًا وهو يراقب البيوت المهدمة من البلدة والبيوت السليمة التي سكنها الغرباء.

ليس هناك شيء أصعب من أحزان البشر وآلامهم، وتبقى آلام وأحزان الضعفاء أمام جبروت الظالمين الّذين يستمتعون بالتنكيل جسديًّا ونفسيًّا للضعفاء جريمة يغضب لها حتى الرب والملائكة.

بينما كان شيخو واقفًا... صامتًا... يراقب... ويتألم ويتعذب من كل ما يشاهده من بعيد وقريب من الانتهاكات الحاصلة لبلدته، مرَّ من جانبه مسلحٌ ذو لحية طويلة وكأنه أخطبوط شاحب يبحث عن فريسة. بعد أن تجاوز شيخو بعدة خطواتٍ، وقف والتفت إلى الخلف، ونظر إليه من فوق رأسه حتى أخمص قدميه. ثم سأله بلهجة جلفة:

- من أنت؟، وماذا تفعل هنا؟ ألا تعلم أن الوقوف بالقرب من بيوت المجاهدين ممنوع؟ هيا اذهب من هنا... هيا.

لم يتحرك شيخو من مكانه، وبقي ينظر إليه نظرة انتقام، وعلى لسانه ثورة من الكلمات على وشك الانطلاق. وفي تلك اللحظات تذكر "عطونو" الذي دوّخ العثمانيين في جبل الكُرد لفترة من القرن التاسع عشر. فردَّ على ذلك المسلح المرتزق بلهجة غاضبة:

- لستُ من شرذمة ضياعٍ في بلدتي، ولا غريبا عن هذه البيوت حتى تقول لي: اغرب من هنا. هذه بيوتنا، ولن تكون إلا لنا.

مدَّ المسلح الذي لا يفقه سوى لغة التهديد والترهيب والقتل يده إلى سلاحه، وقال:

- أقول لك اذهب من هنا، وإلا سأصبغ ذلك الجدار بدمك.

لم يكن شيخو يخاف منه ومن تهديده، وفي كل حياته لم يكن يخشى من أحدٍ أو شيء، لكن في تلك اللحظة تذكر زوجته فيدان والوعد الذي قطعه على نفسه بعد دفنها، بأنه سيعتني بالمنزل ويسقي الورود كل صباح. لذلك بدأ بالتحرك من هناك والتوجه إلى بيته الذي كان قريبًا من ذلك المكان.

بينما كان شيخو يتجه إلى بيته وهو حامل معه جراحه وآلامه التي لا تتحملها الجبال، كان يردد في نفسه: كل ما أراه في بلدة شيّه، وقبله في بلدة جنديرس ومدينة عفرين، هو نفس الحال في بلدات وقرى جبل الكُرد. وبدأ يسأل نفسه: إلى متى ستستمر هذه الحالة... وفي الختام سنبقى تائهين غرباء في ديارنا؟ وهل ستبقى أيامنا تمر على جسورٍ من الآلام النازفة؟ ثم ردد قائلًا: لا... لا أبدًا... سننتصر على هذه الحالة الوبائية آجلًا أم عاجلًا، لكن لا بد من أن يعود كل العفرينيين إلى ديارهم بأقرب وقتٍ، وحينها لكل سؤالٍ جواب.

كان شيخو ككل عفريني/ة يريد العودة السريعة إلى جبل الكُردِ، ليستعجل في مكافحة الذباب من بين حقول الزيتون.

على مسافةٍ قريبةٍ من داره شاهد شيخو خمسة أولاد يتبولون أمام باب داره. وقف ذاهلًا، ثم تابع المشي بخطوات بطيئة. عندما وصل إلى أمام الدار، دخل الأولاد وصاحوا: أُمي... أُمي! رجلٌ غريب يدخل دارنا! حينها كان شيخو قد دخل، ووقف تحت شجرة اللوز التي كانت بالقرب من الباب.

خرجت امرأة من البيت، ثم نادت بأعلى صوتها:

- يا أبا مسعدة... يا أبا مسعدة، هيا! رجل غريب دخل دارنا.

نادى أبو مسعدة من داخل المنزل:

- هيا ادخلي البيت يا امرأة ادخلي.

ثم خرج رجل طويل اللحية طويل القامة وبيده بارودة. وقال لشيخو، وهو يتقدم إليه غاضبًا:

- من أنت أيها الرجل؟! كيف تدخل البيوت دون استئذان من أهلها؟ أليست لديك أخلاق أيها التافه؟!

كان شيخو واقفًا... صامتًا إلى أن وصل أبو مسعدة ووقف أمامه وهو يتفوه بكلامٍ نابعٍ من ثقافته وبيئته الموبوءة بكل الأمراض الاجتماعية.

- ألم أقل لك من أنت، وكيف تتجرأ بالدخول دون إذنٍ مني؟

كانت شرارات الغضب والثأر تقدح من عيون شيخو، التفت إلى يمينه شاهد الورود ذابلة، وأغصان شجرة الليمون مكسورة، وأرض الدار قد تحولت إلى شبه مزبلة. ثم نظر في عيون أبي مسعدة، وقال له بلهجةٍ قاسيةٍ:

- أنا شيخو، وهذا داري التي ورثتها من أبي، وهو الذي ورثها عن جدي. هل فهمت من أكون أنا يا من تريدني أن أستأذن الغريب بالدخول إلى بيتي؟! من أعطاك ولغيرك الإذن بأن تأخذوا بيوتنا لتسكنوها؟

قال أبو مسعدة:

- اخرج من هنا قبل أن أفرغ طلقة في رأسك، (قال بيته قال). أقول لك اخرج أيها الملحد!

جلس شيخو بكل هدوء تحت شجرة اللوز، وبقي صامتًا، لكنه كان يردد في نفسه: هل هناك شهادة أعظم من أن يستشهد المرء من أجل أرضه وداره ووراثة آبائه وأجداده...؟

جنَّ جنون أبي مسعدة من تصرف شيخو، وقال له:

- كأنك لم تسمعني أيها الخرف؟!

ثم حاول ركله برجله. لكن شيخو كان في حالة من الغضب الصامت، فأمسك برجله، وأوقعه أرضًا على ظهره. طارت البارودة من يد أبي مسعدة، ووقعت بالقرب من جذع شجرة اللوز. أخذ شيخو البارودة، وقال له:

- إياك أن تتحرك من مكانك.

ثم تابع، وقال:

- في حياتي كلها لم أقتل، أو حتى أوذي إنسانًا، ولن أقتلك أيضًا. لكنكم تجاوزتم حدودكم عندما غزوتم بلداتنا وقرانا... وتجاوزتم عندما أمركم سلطانكم بالاستيلاء على بيوتنا بعد أن أكملتم لصوصيتكم... وتتجاوزون على أهل الأرض بثقافتكم العفنة التي لا تليق بإنسانية الإنسان...

قبل أن ينهي شيخو كلامه، قال أبو مسعدة:

- يا عم! (خليك هادئ... شوبنا... ليش معصب عليَّ؟!) كانت إصبع شيخو على الزناد، لكنه لم يفكر بقتل أبي مسعدة.

شاهدت زوجة أبي مسعدة من النافذة ماذا حصل لزوجها، فاتصلت بالمجموعة المسلحة التي كان زوجها ينتمي إليها. وخلال دقائق وصلت سيارة محملة بالمسلحين إلى أمام الدار. عندما دخلوا وشاهدوا الموقف، أراد أحدهم أن يقتل شيخو، إلا أن أحد المسلحين منعه قائلا:

- لا تقتله... لا تقتله.

كان شيخو آخذًا موقع الدفاع عن نفسه. وعندما سمع ما قاله ذلك المسلح، قال لهم:

- اطمأنوا! أنا لا أحاول قتل أحد منكم، لكن هذا الذي أمامي حاول قتلي، ولذلك حدث ما حدث.

كانت بوارید المسلحين موجهة إلى شيخو وأصابعهم على الزناد. سأل أحد المسلحين شيخو:

- من أنت...؟ وماذا تفعل هنا؟

ردَّ عليه شيخو:

- أنا صاحب الدار، عدت اليوم، ورأيته مسكونًا من قبل هذا الذي يدعى بأبي مسعدة. وعلاوة على ذلك أراد أن يعتدي عليَّ.

قال له المسلح:

- ارم الباردة جانبًا.

ردّ شيخو عليه:

- لن أرمي البارودة، إن شئت اقترب، وخذها مني بسلام، أنا لستُ بمجرمٍ.

اقترب إليه المسلح بحذر موجهًا إليه فوهة بارودته، مدَّ شيخو له البارودة التي كانت بيده، وقال له:

- لم أفكر يومًا أن أقتل إنسانًا. خذها.

بعد أن أخذ المسلح البارودة من شيخو، ركض أبو مسعدة باتجاه شيخو، وهو ينهال عليه بالشتائم، وأراد أن يضربه، لكن المسلح الذي أخذ منه البارودة منعه، وقال له:

- دعك منه! سنأخذه إلى المقر لنحقق معه.

أمسك المسلحون بيد شيخو، أركبوه في السيارة التي كانت معهم، وأخذوه إلى المقر.

عندما وصلوا، وقالوا له: انزل من السيارة، تفاجأ شيخو، لأن المقر الذي تحدثوا عنه كان بيت أحد أبناء عمومته. عندما دخلوا خرج أحد المسلحين وقال:

- هل أتيتم بالمجرم؟

ثم قال:

- أدخلوه إلى غرفة التحقيق مباشرةً.

عندما أدخلوا شيخو إلى الغرفة، تذكر أغلب السهرات التي قضاها مع ابن عمه في تلك الغرفة التي كانت للضيافة. كانت على صدر الغرفة طاولة ابن عمه الذي كان يقرأ ويكتب عليها في مكتبته المنزلية. ثم دخل الغرفة شخص بزيّ عسكري لنفس المجموعة المسلحة التي أتت بشيخو إلى هناك، وجلس خلف الطاولة، وكادت لحيته تمسح بلُّورتها. كان خلف شيخو ثلاثة مسلحين موجهين رشاشاتهم إلى ظهره. وكان شيخو يردد في نفسه: طاولة العلم والمعرفة تحولت إلى طاولة عليها دفتر البطل... وغرفة الضيوف أصبحت للتحقيق... أين هي عدالة الرب.

بينما كان شيخو يتساءل في نفسه، وقبل أن يبدأ معه التحقيق، دخل مسلحٌ إلى الغرفة، وقال للشخص الجالس خلف الطاولة:

- يا أبا قتادة! الشاب الَّذي يدعى لازكين مات تحت التعذيب بين أيدي المجاهدين.

ابتسم أبو قتادة وهو يمرر أصابعه من بين لحيته الطويلة من الأعلى إلى الأسفل، وقال له:

- تصرفوا بجثته.

تساءل شيخو في نفسه: هل أشباه البشر هؤلاء يحاولون ترهيبي، أم أن موت الشاب حقيقي؟! أرجو أن يكون ترهيبًا.

قبل أن يخرج ذلك المسلح من الغرفة، نظر إلى شيخو نظرة حقدٍ، ثم اقترب منه، وأسمعه:

- سنلحقك به.

ثم خرج.

وضع شيخو يده على أنفه عندما اقترب منه ذلك المسلح بسبب رائحته الكريهة.

كانت نظرات أبي قتادة لشيخو مليئة بالكراهية والخداع، حتى ملامح وجهه كانت تحمل رسائل تدل على أنه شخصٌ ذو روح إجرامية. نهض من على الكرسي الذي كان خلف الطاولة، واقترب من شيخو وهو ينظر إليه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، ثم قال:

- كيف تتجرأ وتدخل دار أحد أبرز المجاهدين دون إذنٍ منه أيها المعتدي؟!

ردّ عليه شيخو ودون ترددٍ أو خوف:

- إنها داري... وهو المعتدي.

صمت أبو قتادة للحظاتٍ، ثم قال له:

- أين كنتَ عندما حررنا البلدة من الملحدين والكفرة؟!

لم يكن شيخو أميًّا، وكان يجالس المتعلمين والمثقفين من أفراد أسرته، وغيرهم من أبناء البلدة في أوقات فراغه. فردَّ على أبي قتادة:

- انتهاك إنسانية الإنسان هو نوعٌ من الإلحاد والكفر... قتل الإنسان بدمٍ باردٍ وتحت التعذيب هو نوع آخر من الكفر والإلحاد بالقيم والأخلاق... ومتى كان الغزو يعد تحريرًا؟!.

عندما كان أبو قتادة يسمع جواب شيخو ردد في نفسه: ما هذا؟ حتى كبارهم في السنِّ لديهم ثقافة...!!! ثم صاح في وجهه وهو غاضبٌ:

- من أين لك هذا الكلام أيها الكرديّ الخَرف؟ تحاول التهرّب من سؤالي؟

- ألم تسمع بالآية الكريمة: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾[١]. ألم تسمع بالحديث الذي يقول: "اطلب العلم ولو كان في الصين". أم أن إطالة اللحى والغنائم والسبايا هي خلاصة الدين عندكم؟!

صمت أبو قتادة لدقائق، ثم جلس على الكرسي الذي كان خلف الطاولة، وقال بلهجة مرنة ومخادعة لشيخو:

- ماذا تريد؟

- حاليًّا أريد أن يرجع لي بيتي.

مدَّ أبو قتادة يدّه على جيب بزته العسكرية، وأخرج منه علبة صغيرة، وفتحها وأخرج منها كبسولة، ووضعها في فمه، ثم شرب فوقها كأسًا من

---

[١] العلق: ١.

الماء. وظل صامتًا إلى أن قلَّ احمرار عينيه. وكان شيخو يراقب كل حركاته، والتغيرات التي كانت تطرأ على ملامح وجهه. ثم نهض أبو قتادة من على الكرسي، واقترب من شيخو، وقال له:

- سترجع لك دارك. لكن للمجاهدين حق التحرير.

سأله شيخو:

- ماذا تعني بحق التحرير؟ وماذا تقصد بالتحرير؟ لم أفهم عليك.

وضع أبو قتادة يده على كتف شيخو، وقال له بهدوء:

- نحن حررناكم من الإرهابيين أليس كذلك؟ ومن حق المحرر أن يغنم ما يشاء من بيوتٍ وأراضٍ وغير ذلك، أليس كذلك؟ وبيتك من ضمن ذلك. لكن سنُرجع لك بيتك مقابل مبلغٍ من المال. وليس لدينا حلٌّ آخر غير ما سمعته. هل وصلتك الرسالة يا شيخو؟!

ثم ذهب وجلس على الكرسي ليسمع جواب شيخو.

أجابه شيخو وبلسانٍ طليقٍ:

- لا يمكن أن يُفهم أن الاحتلال تحرير... أمّا من هم الإرهابيون؟ إنَّ جواب ذلك في شنكال وأخواتها من المناطق والمدن... أمّا أن يشتري صاحب الدار داره من الّذي استولى عليه، لا أعرف ماذا أسمّيه؟ وهل تعلم أن تصرفاتكم هذه ستكون سببًا لخروج الكُرد من دين الإسلام أفواجًا كما اعتنقوه أفواجًا؟

كان جواب شيخو كالصاعقة في وجه أبي قتادة، نهض من على الكرسي لينهال عليه بالضرب. لكن قبل أن يخرج من خلف الطاولة، دخل مسلحٌ الغرفة، وقال لأبي قتادة:

- يا أبا قتادة! أكثر من مئة شخص من العائدين وصلوا إلى الحاجز في مدخل البلدة، ماذا نفعل؟

تغيرت ملامح أبي قتادة بسرعة، وقال بلهجة غاضبة:

- إياكم أن تتركوهم يدخلوا البلدة! أبعدوهم عن الحاجز؛ ولو بإطلاق الرصاص عليهم. فليرجعوا إلى حيث أتوا، أو دعوهم يبقوا بين تلك الأشجار. المهم ألا يدخلوا البلدة. هل فهمت؟

قال المسلح:

- ومعهم سيارات وجرارات ودراجات نارية أيضًا يا شيخ!

ردَّ عليه أبو قتادة:

- اذهب بسرعة، وامنعوهم، وخذوا منهم السيارات الحديثة وغيرها من الآليات التي تنفعنا.

بعد أن خرج المسلح من الغرفة على عجل، فتح أبو قتادة جهاز اللاسلكي الذي كان على الطاولة، وبدأ يتكلم باللغة التركية مع أحد الأشخاص، وكان صوت ذلك الشخص يسمع من خلال الجهاز.

كون بلدة شيّه هي حدودية، وكان لشيخو أقارب وبعض من أبناء وبنات عمومته في الطرف الآخر من الحدود، كان شيخو يتقن اللغة التركية إلى جانب لغته الأم والعربية.

والحديث الذي دار بين أبي قتادة والشخص الآخر باللغة التركية هو الآتي:

أبو قتادة: سيدي أورهان نحن في مأزق.

أورهان: أي مأزق؟ ماذا هناك؟

- قافلة كبيرة من أهالي البلدة سيدي! قافلة كبيرة وصلت إلى مدخل البلدة. لكننا أوقفناها هناك. ماذا نفعل؟

- إياكم أن تسمحوا لهم بالدخول إلى البلدة. أبعدوهم... احجزوهم... هناك من يحاول إفشال خطة المشروع التي رسمناها. منذ فترة بدأت حركة العودة إلى بقية البلدات والقرى أيضًا وبشكل نشط، وهناك من يحركها، وهذا يجلب لنا ولكم الفشل. هذا ما كنا نخشاه. الآن سأبلغ جميع نقاطنا على حدود المنطقة ونقاط شركائنا الذين وقّعوا على بنود الاتفاقية بخصوص عملية (غصن الزيتون) أن يشددوا على عدم دخول هؤلاء إلى المنطقة.

- حاضر... حاضر. لكن ماذا لو حدث نوع من الاعتصام أو غير ذلك على مدخل البلدة سيدي؟

- ماذا تعني يا أبا قتادة؟ هل سأعلمكم أساليب البطش والتصرف بطريقةٍ تتركهم يلعنون الساعة التي عادوا فيها يا قاتل العشرات من هؤلاء الغجر؟!!

ثم ضحك ضحكة طويلة، وأغلق جهاز اللاسلكي في وجهه.

لم يكن أبو قتادة يدرك أن شيخو يتقن التركية فقال له:

- لا أعرف سبب عدائكم لنظام سيدنا، الشخص الذي تكلمت معه كان يقول لي: إنهم أهلنا، تعاملوا معهم بالحسنى.

ثم أمر أبو قتادة المسلحين الثلاثة الذين كانوا واقفين خلف شيخو أن يأخذوا شيخو إلى المقر الذي اتصل به أبو قتادة عبر اللاسلكي.

بينما كان شيخو في سيارة المسلحين التي كانت تتوجه إلى ذلك المقر وهو معصوب العينين، بدأ يكر شريط الآلام والجراح والمعاناة التي قضاها في تهجيرهم القسري مع زوجته فيدان وبقية أفراد أسرته، ثم طريق عودته إلى أن وصل بلدة جنديرس، ومن ثم الحادثتين الأليمتين لزوجته فيدان وزوجة صديقه أُم فرهاد. بين الفينة والأخرى كان يأخذ نفسًا عميقًا، ومن ثم بدأ يكر قصة صديقه خَلو وشيركو التي روتها له أُم فرهاد كشريطٍ مسجّل، وبعد أن أعادها بكل تفاصيلها، ردد في نفسه: لقد ودّعنا الكثير من الطيبين في هذه الحرب القذرة، وها أنا ذا أودع أشجار الزيتون ورائحة الآباء والأجداد وبلدتي للمرة الثانية رغمًا عني. في المرة الأولى عدت إليهم على الرغم من أن كل خطوة كانت تحمل معها رواية ألم وعنوانًا مختلفًا للموت. لكن قد أعود هذه المرة حاملًا في جعبتي الكثير من آهات الذين يموتون في اليوم أكثر من مرة في معتقلات أهل الحقد والكراهية والظلام. وقد أبقى هناك حيث يأخذونني وأُصبح جارًا أبديًّا لصديقي خَلّو تحت لحافٍ من التراب. نعم... رحم الله والدي الذي كان يقول لنا: لا تتعلموا الانحناء.

كانت السيارة تسير بسرعة، وكانت روح شيخو تتحسس نداءات أشجار الزيتون؛ وهي تقول: حكاية الظلام باتت على وشك الانتهاء.

تمّت

حزيران ٢٠١٨